الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة وهران

كلية :العلوم الاجتماعية

قسم :فلسفة

تخصص : نقد وقضايا المنهج في الفلسفة.

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة

الموسومة بـ

إشكالية علمية التاريخ عند كارل بوبر

إشراف ا. د.دراس شهرزاد

إعداد الطالب قداوي محمد

اعظاء لجنة المناقشة 2015/04/20

ا.د الزاوي عمر.....رئيسا..... جامعة وهران.

ا.د دراس شهرزاد....مشرفا ومقررا..... جامعة وهران.

ا.د بوكرلدة زواوي...مناقشا..... جامعة وهران.

ا.د العربي ميلود....مناقشا..... جامعة مستغانم.

السنة الجامعية 2014_2015

شكر

لا يسعني إلا أن أعبر في مستهل هذا البحث، عن

شكري الخالص للأستاذة :د.دراس شهرزاد، على ما

بذلته من جهد في توجيهي لإنجاز هذا العمل.

جزاها الله عنا خيرا.

إهداء

إلى من ينبئ حلمهم عن حبهم، وصدقهم عن منطقهم

إلى أمي وأبي وأختي، وجميع أساتذة الفلسفة.

إلى كل من يضحي في سبيل العلم والمعرفة.

فهرس

شكر

إهداء

مقدمة أ

مدخل مفاهيمي: ضبط المفاهيم **10**

الفصل الأول: علمية التاريخ

المبحث الأول: في طبيعة المنهج (تاريخي –تجريبي) **22**

المبحث الثاني: انعكاس المنهج التجريبي على دراسة التاريخ **31**

المبحث الثالث: علمية التاريخ في ضوء مدرسة النقد التاريخي **39**

الفصل الثاني: بوبر فيلسوف العقلانية النقدية

المبحث الأول: ملامح العقلانية النقدية المعاصرة **53**

المبحث الثاني: بوبر رائد العقلانية النقدية **58**

المبحث الثالث: منهج البحث النقدي **65**

الفصل الثالث: موقف بوبر من علمية التاريخ

المبحث الأول: عقم المذهب التاريخي **77**

المبحث الثاني: نقد التاريخانية **83**

المبحث الثالث: معيار التكذيب وعلم التاريخ **89**

خاتمة 97

قائمة المصادر والمراجع 102

مقدمة

ارتبطت مكانة علم التاريخ بتحديد ماهيته في إطار المعرفة الإنسانية، مع ما شهده القرن 17 من نهضة علمية والتي كانت لها أبعد الأثر في تغيير نظرة الإنسان إلى الكون والطبيعة، حين زادت من رغبته في التطلع إلى مستقبل منير بشعاع العلم، بعد التخلص من رقبة اللاهوت المسيحي وطغيان الفكر الأرسطي.

إذ وجدت الدراسات التاريخية نفسها، متأثرة بالادعاءات (البيكونية) التي زعم النجاح في تقويض علم اللاهوت بالعلم الطبيعي، القائم على التبرير الوضعي الايجابي في حيازته على القوانين، من خلال فكرة الاستقراء بناءا على مبدأ الحتمية، بحيث رغبة على إنصاف التاريخ كعلم، ورد الاعتبار له بعد التهميش الذي تعرض له في العصور الماضية.

فالتاريخ يصل إلى مرتبة العلم الطبيعي، عندما يقدم المؤرخ حيثيات الحادثة التاريخية بموضوعية تشبه موضوعيته، هذا بالفعل ما نجده عند (فيكو) وكغيره من المؤرخين، لكن المسألة لا تجد لنفسها حلا نهائيا بل تزداد تعقيدا أمام النقاشات التي تطرح خلاف ذلك.

فمن جهة هناك من يرى على أساس التمايز بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، بلوغ الموضوعية في دراسة التاريخ، بعيدا عن المنهج التجريبي، واستخدام طريق آخر هو منهج النقد التاريخي.

أم من جهة ثانية، سيطرت العقل العلمي التي جعلت الدراسات التاريخية، ترد للتاريخ المصداقية لم يقد يوثق فيها بسبب ما شهده العل م الطبيعي نفسه خلال القرن 20، القرن الذي ظهرت فيه صعوبة الدفاع عن الصورة الاستقرائية والحتمية للعلم الكلاسيكي، ولعل قوانين (نيوتن) خير مثال على ذلك.

في ظل الصدام المعرفي الذي أثارته هذه النقاشات حول ع لمية التاريخ بيان طبيعته وتصنفيه ضمن بقية العلوم، وكذا النقاش العلمي المعاصر (طبيعي – رياضي) تأتي فلسفة (كارل بوبر، المفكر والفيلسوف الذي وهب حياته العقلية لفحص شروط التقدم العلمي وكذا شروط

التقدم الاجتماعي، وفق مبدأ "العقلانية النقدية" الذي رفعه كشعار يجب أن يتحلى به كل باحث لتسجل انعطافا كبيرا ذي دلالة ابستمولوجية، مستبدلة النموذج العلمي الطبيعي (الاستقراء الحتمية) بنموذج (الاستنباط، اللاحتمية)، حيث كان أهم شيء في فلسفته اختيار معيار آخر يميز العلم، هو قابلية النسق أو المذهب النظري للتنفيذ، أو القابلية للتكذيب، فهدف العلم ليس اكتساب اليقين.

إن هذا الاعتبار المنهجي عند صاحبه (كارل بوبر) يتعدى للحديث ع ن مقاربته الابستمولوجية للعلوم الاجتماعية والتي يعتبر (علم التاريخ) فرعا من فروعها، أي في إمكانية مشروع انجاز باحث ابستمولوجي لهذه العلوم يكشف عن عنصر المعقولية فيها.

فضلا عن تأكيده بعقم المذهب التاريخي أو نقده للتاريخانية، على أنها تمثل نظريات زائفة وفق قواعد منهجه النقدي إلا أن لـ (بوبر) موقف بشأن عملية التاريخ عند ما حدد للمؤرخ طريقة علمية، تعكس نوعا من التقارب المنهجي بين التاريخ والعلم الطبيعي، والمتمثلة في تحديد المشكل التاريخي، لهذا تجيء دراستنا للإجابة على الأسئلة الآتية.

-إذا كانت الدراسات الإنسانية كعلم التاريخ تعتمد على المنهج التجريبي في بلوغ الموضوعية التي بلغها العلم الطبيعي، فإلى أي مدى يمكن القول بصلاحية هذا المنهج.

-لو سلمنا منذ البداية بأن هناك اختلاف بين علم التاريخ الذي موضوعه الإنسان، والعلم الطبيعي، فهل منهج النقد التاريخي كاف لتحديد ماهية التاريخ وعلميته؟

-إذا كانت النظريات العملية خاضعة للمعيار القابلية للتكذيب، فهل هذا يعني أن هناك نظرية في التاريخ تخضع لهذا المعيار، مثلما يخضع له العلم الطبيعي؟.

- لعل النظرة البوبرية لعلمية التاريخ مرهونة بمبدأ العقلانية النقدية" فهل هذا المبدأ قائم بذاته، أم هو مبدأ صنعته الظروف وصقلها العقل الوبري؟.

– إلى أي مدى يمكن القيام بعملية إسقاط الواقع المعاصر بمفهوم العلم ومفهوم التاريخ عند (بوبر؟)، ماذا لو تم نقده ومجاوزته، ألا يصبح منهج البحث النقدي عنده غير صالح؟ وبتالي يكون فكر (بوبر) في نظرته للعلم والتاريخ رغم الموضوعية، يحمل في طياته بذور من الذاتية؟

ذلك ما سنحاول الإجابة عنه من خلال بحثنا هذا، الذي دعانا لاختياره دون سواه من الموضوعات الأخرى للأسباب الآتية:

أ– الأسباب الذاتية:

ميولنا إلى هذا النوع من المواضيع، ورغبتنا في التقرب من منزلة البحث فيه، وهذا راجع بطبيعة الحال إلى مؤهلاتنا حول فلسفة العلوم.

تطرقنا إلى هذا الموضوع سابقا، في إطار الدراسات في التدرج وفي السنة النظرية لما بعد التدرج.

ب– الأسباب الموضوعية.

إن هذا الموضوع هو بمثابة فرصة تتيح لنا التعرف على أهم ممثل للاتجاهات العلمية المعاصرة (كارل بوبر) بمقاربته الابستمولوجية للعلوم الإنسانية، تجعلنا نتأكد من صدق فروض النزعة التجريبية في دراسة التاريخ.

معظم الدراسات العربية أكدت بان فلسفة (بوبر) علامة بارزة في تاريخ الفكر الإنساني، بل تعتبرها تصويرا صادقا للتطورات التي تنتمي إلى نتائج العلوم الطبيعية، هذا ما أثار فضولنا بل كان سببا رئيسيا في معرفة ما إذا كان رأي (بوبر) بشان علمية التاريخ متساوق مع منهجه ومفاهيمه.

إن العلم أمام ما يطرحه من مشكلات لا تتعلق فقط بالجانب النظري بل كذلك الجانب التطبيقي، لذلك كان اختيارنا لهذا الموضوع هو الانفتاح على الدرس الفلسفي الابستمولوجي وتطبيقاته، يعلمنا كما يعلم أي باحث من أنه لابد الانطلاق من قاعدة علمية، تساعدنا على

الإجابة على التساؤلات المتعلقة بوضعنا وموقعنا على الصعيدين الكوني والاجتماعي في بعده التاريخي.

بالتالي عملنا هو بمثابة امتداد طبيعي فقط لمن أراد أن ينشد غاية، مفادها تعويد طالبة الفلسفة والتاريخ على اكتساب منهجية التفكير العلمي والفلسفي، بالانتقال من التعليم المعتمد على الحفظ والتلقين إلى التعلم الذي يسمح بناء المعارف وتنمية الكفاءات.

فيما يخص بنية النص أو الهيكل العام لموضوع الرسالة، نتقدم بوضع تصميم يشمل كل جوانب الإشكالية وهو تصميم يقسم البحث إلى: مقدمة، مدخل مفاهيمي، ثلاثة فصول ثم خاتمة.

يحتوي كل فصل على ثلاث مباحث، تأتي على الشكل الآتي:

أ- الفصل الأول : المعنون بـ "عملية التاريخ" قمنا فيه بعرض طبيعة المنهج (تاريخي، تجريبي) في المبحث الأول، لأن إشكالية كهذه ليست شيئا أكثر من الحديث عن إشكالية المنهج يعكس نوعية التفكير وطبيعة المعرفة بالنسبة للعلمين (التاريخ، الطبيعة)، في المبحث الثاني تناولنا فيه الكيفية التي أنعكس بها المنهج التجريبي على دراسة التاريخ، أي تم التطرق للموقف الذي خصص أسلوبا للمؤرخ يمكن أن يحقق موضوعية مادته التاريخية على نسق العلوم الطبيعية كما هو الحال عند (فيكو)، أم المبحث الثالث تم التطرق للموقف الذي يتبنى علمية التاريخ ليس بأسس المنهج الاستقرائي، بل بمنهج آخر ينطبق على خصوصيته ألا وهو (منهج النقد التاريخي) يكون التأويل كآخر مرحلة من مراحله غايته فهم الحادثة التاريخية، لي كقاعدة معرفية للعلوم الإنسانية بأكملها.

ب- الفصل الثاني: المعنون بـ"بوبر فيلسوف العقلانية النقدية" قمنا في المبحث الأول بشكل مختصر عرض ملامح العقلانية النقدية المعاصرة، باعتبارها فلسفة القيم الابستمولوجية، تعمل على مؤازرة الفكر العلمي الجديد ومجاوزة الطرح الفلسفي الكلاسيكي (عقلاني – تجريبي)، مقتصرين على (باشلار) كنموذج لأن المبحث لا يتسع مساحة لذكر رواد هذا النشاط بأكملهم، ثم تطرقنا

لـ (كارل بوبر) كرائد للعقلانية النقدية في المبحث الثاني واقفين عنده كطرف يصحح مسار فلسفة العلم المعاصر، وهو أن نكون على وعي بمهمة النقد، فالفلسفة عنده شعارها مبدأ "العقلانية النقدية" لا تسأل أبدا عن أصل المعرفة ولا عن اليقين بل كيفية اكتشاف الخطأ، أم المبحث الثالث تناولنا فيه منهجه النقدي بعرض جانبه البنائي أولا، أي طبيعته وقواعده ثم خطواته حيث يعتبر معيار القابلية للتكذيب كخطوة مهمة منها، ثانيا موقفه النقدي من الاستقراء بصفة مختصرة.

ج- الفصل الثالث: المعنون بـ "موقف بوبر من علمية التاريخ" قمنا في المبحث الأول بعرض آراء (بوبر) حول المذهب التاريخي وكيفية تبريره بعقم هذا المذهب، ثم عرجنا في المبحث الثاني على نقد (بوبر) للتاريخانية أو النظريات التي تعطي تفسيرات حتمية نهائية لحركة التاريخ، بحيث يربط (بوبر) هذا النقد مع فكرته عن المجتمع المفتوح وأعدائه أو أصحاب المجتمعات المغلقة كالهيغيلية والماركسية، أم المبحث الثالث خصص للمحاولة التي قام بها (بوبر) ألا وهي إضفاء الصفة العلمية على التاريخ، يجعل معيار التكذيب صالح لدراسة حوادثه، لا يختلف كثيرا عن خطوات منهجه النقدي في دراسة الطبيعة.

لصياغة أفكارنا في هذا البحث صياغة معمقة، استعنا بالمنهج التحليلي والنقدي المناسب لطبيعة الفلسفة البوبرية، بحيث عملية التحليل هذه تفرضها السمة التي ميزت أفكارنا ألا وهي البساطة والوضوح، بالإضافة إلى المنهج التاريخي المناسب لعرض الآراء والمواقف السابقة على (كارل بوبر) بصدد علمية التاريخ، كما كانت صياغتنا لخطة البحث بأسلوب الجدل فرضته ماهية وطبيعة التاريخ واختلاف آراء الفلاسفة حولها.

قد لا يجد الباحث دراسات قبلية، أو دراسات سابقة بهذه الصياغة "إشكالية علمية التاريخ عند كارل بوبر" نستطيع من خلالها الإجابة على تساؤلاتنا السابقة حول الموضوع، إلا أننا قمنا بحصر وجمع المراجع التي تمس جوانبه، لتقرب من هدف البحث المرجو أفادتنا على مستوى

المنهجية وعلى مستوى التنظير في تنظيم أفكارنا وترتبط بحسب المشكلة خصوصا إذا تعلق الأمر في فهم معيار القابلية للتكذيب أو بصفة عامة منهج العلم ومنطقة عند (بوبر) أهمها:

1- **لخضر مذبوح:** فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، دار العربية للعلوم الناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009 يسعى هذا البحث إلى توضيح معالم التفتح في فلسفة (كارل بوبر) في شقيها (طبيعي، رياضي) والاجتماعي، كما عرضها (بوبر) في ك مؤلفاته ذات الطابع المنهجي كمنطق الكشف العلمي" ... أو في مقاربته الابستمولوجية للعلوم الاجتماعية ك "عقم المذهب التاريخي"، والتفتح كما يفهمه (الخضر مذبوح) ينطلق من النقد كمنهج لعمل العقل ضد النظريات الدوغمائية المنغلقة على ذاتها والتي تدعي بلوغ اليقين، لهذا يعرض أستاذنا عرضا جيدا وقيما لملامح هذا التفتح من خلال النقاط الآتية.

أ- الظروف والانجازات التي شهدتها الثقافة الأوروبية الغربية في القرن 20 والتي شكلت بدورها العقل البربري، خصوصا (تطورات العلم المعاصر).

ب- الخاصية الابستمولوجية التي تميز العلم منهجه الثورية الدائمة.

ج- التقرير بالوحدة المنهجية بين البحث في الطبيعة والبحث في المجتمع وصولا إلى:

- التمييز بين خصائص العلم الطبيعي والعلم الاجتماعي.
- لا وجود لتفسيرات نهائية للتاريخ.
- لا وجود للمجتمعات المغلوقة.
- لا وجود إلا للتاريخ اجتماعي مفتوح.

2- **محمد محمد عويضة كامل** : -كارل بوبر فيلسوف العقلانية النقدية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، اقتصر هذا البحث على شرح المعارف الابستمولوجية كالمعرفة العلمية والمعرفة الميتافيزيقية، الحتمية، نشأة العلم، حساب الاحتمالات ..الخ.

3- **مصطفى عادل**: -كارل بوبر مائة عام من التنوير ونضرة العقل، دار النهضة العربية، بيروت، د(ط، س) يعد هذا البحث بمثابة تقييم ايجابي للفيلسوف (بوبر) ودوره في تطوير فلسفة العلوم، بحيث عمل (مصطفى عادل) على تبيان هذا الدور الذي لا يقتصر على العلم الطبيعي فقط خصوصا مسألة المنهج التكذيبي، عنده ترجم كتاب (بوبر) حدوس وتفنيدات بل في علاقة هذا المنهج بالعلوم الإنسانية كنظرية التحليل النفسي، عندما ترجم كتاب النفس ودماغها وعلاقتها بالعوالم الثلاث.

4- محمد محمد قاسم: -في الفكر الفلسفي المعاصر رؤية علمية، دار النهضة العربية، بيروت، (ط.س)، كرس (محمد محمد قاسم) سبعة فصول انتهى إلى نتائج ابستمولوجية، وهذا البحث يعد من الأبحاث العربية المهمة يوضح فيه مفهوم الفلسفة عند (بوبر) ألا وهو وعي الإنسان بمهام النقد، وهذه النتيجة التي توصل إليها إلا بعد عرض كامل للمنهجه العلمي كال نظرية العلمية، المعرفة الموضوعية، التكذيب ومعيار القابلية للتكذيب، نظرية العوالم الثلاث ...الخ.

بالإضافة إلى هذه الأبحاث استخدما المراجع والمصادر والمعاجم والموسوعات التي تخدم الهيكل العام لموضوع الرسالة، وهي مذكورة في آخر البحث، أمر المصادر المتعلقة بالفلسفة (كارل بوبر).

بوبركارل: الحياة بأمرها حلول المشاكل، تر بهاء درويش، منشأ المعارف، الإسكندرية، دط، 1994.

- **بوبركارل**: عقم المذهب التاريخي، دارسة في مناهج العلوم الاجتماعية، تر: عبد الحميد صبره، منشأ المعارف، الإسكندرية، ط3، 1959.

- **بوبر كارل**: منطق الكشف العلمي، تر: ماهر عبد القادر، القاهرة، د.ط، 1986.

- **بوبركارل**: بحثا عن عالم أفضل، تر: أحمد مستجير، سلسلة الأعمال الفكرية، القاهرة، د.ط، 1999.

– **بوبركارل** : أسطورة الإطار، تر: يمن طريف الخولي، مجلة عالم المعرفة، عدد 292، الكويت، 2003.

بالإضافة إلى مصادر المتعلقة بفلسفة (بوبر) بالأجنبية نذكر منها:

-papporkarl : Misère de l'historicisme، T،hervepousseau، Edition،plon، paris، 1961.

-popper karl :The Open society and it's enemies vol1، vol2، Rout ledge، 1957.

نختم هذا البحث، بأهم النتائج المتوصلإليها على مدار ثلاثة فصول، أم عن الصعوبات التي واجهتنا في إنجاز هذا البحث:

– تشعب جزئيات الموضوع، صعب وضعية ضبطه في قالب منهجي وإحكامه في خطة متوازنة الفصول وتركيب العناصر المناسبة في كل مبحث وفي كل فصل.

– قلة المصادر المتخصصة والمباشرة للموضوع، عد بعض الكتب والمراجع المحايثة له، التي استفدنا منها نسبيا، ورغم هذه الصعوبات إلا أنها لم تثن عزيمتنا في إتمام هذه المذكرة المتواضعة، كما نرجوا من الله عز وجل أن نوفق ولو بقدر معتبر، يليق بسمعة البحث الأكاديمي بالجامعة الجزائرية.

وأخيرا في ختام هذا التقديم، لا يسعنا إلا أن نتقدم بالشكر الخالص للأستاذة المشرفة (دراس شهراد) على متابعتها الأخوية، والتي تنم عن سريرة طيبة وشخصية علمية فذة، حيث كانت إرشاداتها ونصائحها ثمرة هذا البحث المتواضع.

مدخل مفاهيمي

ضبط المفاهيم

إن عملية ضبط المفاهيم التي يتأسس عليها أي بحث علمي تقع على عاتق كل باحث، فهي كخطوة مهمة تساعدنا على تحليل الموضوع والتعرف على محتوياته، وما دمنا بصدد معالجة إشكالية "علمية التاريخ عند كارل بوبر"، ارتأينا أن نستند على مجموعة من المفاهيم الأساسية تستحق التنطيق والإيضاح خدمة لموضوع البحث، وبمثابة مرحلة تمهيدية تساعد على الدخول في لب الإشكالية.

1- **علمية**scientisme: "ثقة مطلقة بإمكانات العلوم النظرية والتجريبية من العلم science المشتقة من الكلمة اللاتينية scienta"[1] والتي تعني المعرفة.

لغة: "هو نقيض الجهل، علم علما وعلم هو نفسه، قال سيبويه: يقول العلماء، من لا يقول علما، وعلمت الشيء، أعلمه علما، أي عرفته، وعلم الأمر وتعلمه، أي أتقنه، وقوله تعالى الرحمان-علم القران، سورة الرحمن الآية 1-2".[2]

اصطلاحا: "شكل للوعي الاجتماعي، يمثل نسقا système متطورا من المعرفة التي يصير التحقق vérification من صدقها، وتكمن قوة العلم في تعميماته Généralisation، فهو يدرس ويجد القوانين الموضوعية lois objectives، التي بدونها يكون النشاط العلمي الواعي والفرضي مستحيلا"[3]. لكن "إذا كان العلم مرادفا للمعرفة، فلا يلزم عن كل علم معرفة، أن تكون كل معرفة علم".[4]

يرتبط مفهوم العلم عند (كارل بوبر Karl Popper)، (1902-1995) بمفهوم المنهج العلمي عنده وعلاقته بنمو المعرفة ففي مقابل التعريفات السابقة للعلم التي تأخذ شكلها الإيجابي

---

[1]- أندري لالاند: الموسوعة الفلسفية، م3، ترجمة أحمد خليل، منشورات عويدات، ط2، 2001، ص1249.

[2]- ابن منظور: لس ان العرب المحيط، م 3، الدار المتوسطية للنشر والتوزيع الجمهورية التونسية، ط 1، 2005، ص3735.

[3]- م روزنتال، ب بودين: الموسوعة الفلسفية، تر سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط7، 1997، ص300.

[4]- أندري لالاند: المرجع نفسه، ص1249.

تطور المعرفة croissance de connaissance حتى يصير التحقق من صدقها، التبرير justification، أو التأييد confirmation أصبح مع (بوبر) يأخذ شكله السلبي، التكذيب falsification أو الرفض، يقول: "إن معرفتنا، تنمو كلما تقدمنا من مشكلات جديدة، باستخدام التفنيدات réfutation، وذلك عن طريق رفض نظريتنا أو بصفة أكثر عمومية برفض توقعاتنا prévision"[1]، أي أن العلم بوصفه مجموعة من النظريات هو مجال المعرفة الحقة، لا يسأل عن صدقها؟ بل يسأل عن وضعها العلمي أو عن المعيار الذي يمنحها صفة العلمية؟.

2- **التاريخ**: histoire "مشتقة من اللفظ اليوناني historia"[2] والتي تفيد الرؤية، أو النظر أو المعنى، وقد تعني البحث.

لغة: "مأخوذة من الفعل أرخ يؤرخ تأريخا، تعريف الوقت والتواريخ، مثل: أرخ الكتاب ليوم كذا، وقيل أن التاريخ الذي يؤرخه الناس ليس بعربي محظ وأن المسلمين أخذوه عن أهل الكتاب، وقيل أن التاريخ مأخوذ منه كأنه شيء، وقيل التاريخ مأخوذ منه لأنه حديث".[3]

اصطلاحا: التاريخ هو معرفة ماضي الإنسانية ومسار حياتها الراهن، وأهم شيء أو المسألة الأساسية التي تطرح بصدد التاريخ فيما إذا كان من شأنه أن يتخذ صفة العلم؟"[4].

إذا كان العلم عند (بوبر) بوصفه مجموعة من النظريات théories هو مجال المعرفة الحقة، لا نسأل عن صدقها بل نسأل عن معيار تكذيبها أو رفضها، الذي يمنحها صفة العلمية، فما هو مفهوم أو معنى التاريخ عنده؟.

---

[1]–Popper Karl: "the science, problems, Aims, responispilities" Quaterfronaoheareccles, world of objectif knowledge, ed, inschilpp, p 362.

[2]- dictionnaire encyclopédique, la rousse, édition française in, licencié – quant aux droits, d'auteur et usage des manques pour le canda, 1980, p372.

[3]– ابن منظور، المرجع نفسه، م1، ص75.

[4]– ديديه جوليا: قاموس الفلسفة، تر فرانسوا أيوب وآخرون، مكتبة أنطوان، بيروت، ط1، 1992، ص115.

يتحدد مفهوم التاريخ عند (بوبر)، في الكيفية التي خولها للمؤرخ وهي إتباع طريقة علمية méthode scientifique أثناء تفسيره لفترة تاريخية معينة، طريقة يمكن من خلالها تمييز صدق الفروض التاريخية hypothèses historiques وتكذيبها دون التأثر بالمعاني السائدة بين الناس والمتضمنة في الكتب والمقررات المدرسية يقول: "معنى التاريخ الذي يتحدث عنه معظم الناس لا وجود له إطلاقا، وهذا يشكل واحدا من الأسباب على الأقل التي تدفعني للقول بأن التاريخ لا معنى له" [1]، أي لا معنى لذلك التاريخ، الذي ينشر مضمونه بين الناس، مكتفيا بنقل الوقائع والمعارك وقصص الثورات، فهذا تزوير للتاريخ، وتشويه للماضي.

ما يعزز هذا الرأي هو التقارب المنهجي بين التاريخ والعلم الطبيعي عندما ينطلق المؤرخ من فرض نظري متعلق بمشكلة تاريخية يمكن اختبار هذا الفرض، إما أن يكون صادقا vraiأو كاذبا faux، فيستبعد لوجود وجهة نظرا أفضل منه، يقول: "الشروط الأولية المفترضة)...(غالبا ما يمكن اختبارها بصدق، ومن ثمر مقارنتها بالنظريات العلمية théorie scientifique"[2].

3- **تاريخي**historique: "ما يتعلق بالتاريخ أو ما يكون تاريخيا، كتاب التاريخ، المنهج التاريخي"[3]، والتاريخي مذهب، historicisme: "يقرر بأن القوانين الاجتماعية تتصف بالنسبية التاريخية relativité historique، وأن الحوادث الاجتماعية، تعتمد في وقوعها على موقف تاريخي معين، ومن هذا الوجه تتصف القوانين الاجتماعية بالنسبية التاريخية، الأمر الذي يفضي إلى أنه من المحال إتباع منهج العلوم الطبيعية"[4].

إن المذهب التاريخي historicisme له علاقة بالعلوم الاجتماعية sciences sociales، كثيرا ما يستخدم من غير نقد بل قد يسلم به تسليما، يعرفه (كارل بوبر): "طريقة في معالجة

---

[1] بوبر كارل: الحياة بأسرها حلول لمشاكل، تر بهاء درويش، منشأ المعارف الإسكندرية، د.ط، 1994، ص192.

[2]- popper karl: the open society and it's enemies, vol 2, london,Routledge, 1957,p269.

[3] أندري لالاند: الموسوعة الفلسفية، م2، المرجع السابق، ص560.

[4]- وهبة مراد، كرم يوسف، شلالة يوسف: المعجم الفلسفي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط2، 1971، ص44.

العلوم الاجتماعية تفترض التنبؤ التاريخي prédiction historique هو غايتها الرئيسية، كما تفترض إمكانية الوصول إلى الغاية بالكشف عن القوانين، أو الاتجاهات attitudes، أو الأنماط أو الإيقاعات التي يسير التطور التاريخي évolution historique، وفقا لها".[1]

4- **التاريخانية**: historicité: "في الفلسفة الوجودية existentialisme ترجمة للمفردة الألمانية *Geschichtlich*ويرى (مارتن هيدغر Martin Heidegger)، (1889-1976)، أن التاريخانية تنسب أساسا إلى ذاتية الفاعل التاريخي" [2] ويقصد بها، "مذهب يقرر أن القانون من نتاج الفعل الجمعي، لهذا فإن الفرض التاريخي لازم لدراسة القانون".[3]

5- **العقلانية**rationalisme : "مذهب يثق في قدرة العقل على معرفة الحقيقة، مع رفض الانقياد للعاطفة"[4]، فهو نهائي كامل البناء حائز بصفة قبلية apriorie، لكل المقولات catégorie اللازمة لمعرفة العالم الخارجي، وهذا بالطبع ما كانت تدعيه العقلانية الحديثة rationalisme moderne، ويقصد بها: "ما يميز النظرية الفسلفية، عن طريق الاستدلال العقلي الخالص pure inference rationnelle وبغير اللجوء إلى مقدمة تجريبية premisse empirique يمكننا أن نصل إلى معرفة جوهرية عن طبيعة العالم".[5]

لكن في الوقت الحالي ومع ما شهده العلم من تطور، لم يبقى مجال للحديث عن هذه السمة التي طبعت العقلانية الحديثة، بحيث أصبحت هذه الأخيرة متعرضة لعرض سجالي انتقادي من طرف العقلانية المعاصرة rationalisme contemporaine كفلسفة تؤازر التفكير العلمي،

---

[1]- بوبر كارل: عقم المذهب التاريخي، دراسة في المناهج العوم الاجتماعية، تر، عبد الحميد صبره، منشأ المعارف الإسكندرية، ط3، 959، ص11.

[2]- أندري لالاند، المرجع نفسه، م2، ص1102.

[3]- وهبة مراد، المرجع نفسه، ص44.

[4]- محمود يعقوبي: معجم الفلسفة، أهم المصطلحات، وأشهر الأعلام، دار الميزان، الجزائر، ط 1، 1973، ط2، 1998، ص185.

[5]- محمود زكي نجيب :الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلا عن الإنجليزية، فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، بيروت، د (ط، س)، ص418.

لإبراز القيمة الابستبمولوجية valeur epistémologique دون الوقوع فيما وقعت فيه العقلانية الحديثة (مثالية الذات، مثالية العقل)، يقول (جون بياجي J. Piaget) (1896-1980)"إن الابستمولوجيا المعاصرة تبرز دور العقل وفعالية الذات، دون الوقوع في المثالية فهي تنظر على الخصوص إلى المعرفة على أنها تركيب متواصل".[1]

6- **النقد**critique: "مشتقة من الكلمة اللاتينية criticus"[2] وتعني حاسم.

لغة: "نقد، ينقد، نقدا وتنقادا تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها، نقدته حية، لدغته، والنقد تقشر في الحاضر، وتآكل في الإنسان"[3].

اصطلاحا: "هو مذهب فلسفي يرى بأن القضايا التي يعمم بها الإنسان أحكامه -jugements على الأشياء choses تتضمن وجود مبادئ principes ومقولات في العقل لولاها لما أمكن للخبرة الحسية أن تنتظم في المدركات وقد ارتبطت هذه الفلسفة بـ (إمنويل كانطEmmanuel Kant)، (1724-1804)[4]، في فلسفة العلوم philosophie des sciences يلاحظ أن ما أحرزه العلم من نتائج لا تأتي من العدم بل نتيجة الممارسة النقدية الموضوعية، ذلك لما للنقد من أثر في بناء المعرفة العلمية وتحقيق المزيد من الأهداف المرجوة، وباعتبار أن (بوبر) هو أحد الفلاسفة العلم المعاصر، فما هو مفهوم النقد عنده؟

يرتبط مفهوم النقد عند (بوبر) أساسا بالانتباه الذي يجب أن يوفره الباحث chercheur، لماهية النقد ووفق أغراضه المعينة، فإذا كان الغرض من أجل التذوق goûter فيسمى هذا النوع من النقد نقدا جماليا esthétique يهتم بالأغاني والملامح والشعر poésie، وإذا كان من أجل غرض معرفي، فيسمى هذا النوع من النقد، نقدا عقليا يهتم بالطبيعة والعلم.

---

[1]- j- piaget: l'épistémologie génétique- p,v,f, 1970, p10.

[2]- DAUZAT ALBERT:la rousse etymologique et historique, p232.

[3]- ابن منظور: المرجع نفسه، م1، ص738، ص739.

[4]- محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة، دار الجيل، الجمعية المصرية للنشر، د.ط، 1995، ص1843.

يؤكد (بوبر) أن أصل (الشعر والعلم) هو الأسطورة Mythe* وبالتالي شروط تحقيق الموضوعية، أو شروط تطور العلم، هو التمييز بينه وبين اللاعلم، من خلال تحدي النقد العقلي للأسطورة يقول: "يمكن أن نميز بين نوعين من النقد، واحد ذو اهتمامات جمالية، وأدبية وآخر ذو اهتمامات عقلية، فأما الأول، فيقود من الأسطورة إلى الشعر، وأما الثاني فيقود من الأسطورة إلى العلم)...(إن النقد العقلي، يسأل ما إذا كان الخطاب الأسطوري MythologiqueDiscours صحيحا)... (تحت ضغط، مثل هذا السؤال، تصبح الأسطورة كوزمولوجيا cosmologie".[1]

مما لا شك فيه أنه يحق للعلم ذاته أن يعين حدوده الخاصة، وأن يقبل أو يرفض هذا النوع أو ذاك من التأملات فالعلم هو النقد في سمته العقلية المؤكدة، إلى حد أننا نخرج عادة المعارف غير العقلية من المجال العلمي، وقد أشار "(بلانشي Blanché) (1898-1975)إلى هذه المسألة عند حديثه عن العلوم الخاطئة Fausse sciences، وتلميحه إلى رفض (ديكارت René Descartes)، (1579-1650) لها بوصفها لا تخضع إلى سلطان العقل"[2].

7- المنهج Méthode: "مشتق من اللاتينية Méthodes، واليونانية Mothodos، وجاء في قاموس الموسوعة الفلسفية في الجزء الثاني المخصص للأفكار، أن المنهج هو قبل كل شيء الطرح المفصل والمتواصل للمراحل التي بفضلها يسمح لنا بالتنقل إذا ما أردنا الحصول على نتيجة معطاة للمعرفة، وكما يقصد به مسلك عقلي لمجموعة من القواعد".[3]

---

*قصة خرافية تدور على كائنات وهمية تصور القوى الطبيعية، الأحداث الرمزية ويقصد بها صياغة فكرة أو نظرية في الشعر (أفلاطون) (platon) مثلا يستخدم الأسطورة في مسائل الفلسفة الكبرى، فهو يرى المثل تصويرا أسطوريا، من خلال صلتها بالمحسوسات، وهبة مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص17.

[1]-بوبر كارل: بحثا عن عالم أفضل، تر، أحمد مستجير، سلسلة الأعمال الفكرية، القاهرة، د.ط، 1999، ص273.

[2]- بشتة عبد القادر: العقل العلمي في عصر التنوير، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997، ص07.

[3]-ابن شرقي بن مزيان وآخرون: من مناهج النقد الفلسفي، دار الغرب للنشر والتوزيع، الجزائر، د(ط، س)، ص23.

8- **طبيعي –Naturelle**: "مشتقة من الكلمة Nturalis"[1] وتعني الطابع، والفيزيقي أي الطبيعي: "الذي ينتمي إلى العالم الظاهري، يمكنه أن يكون موضوع معرفة اختبارية".[2]

لغة: "طبع، الطبع والطبيعة، الخليقة والسجية التي جبل عليها الإنسان، والطباع كالطبيعة المؤنثة وطبع "الله" الخلق على الطبائع التي خلقها فأنشأهم عليها وهي خلائقهم، يطبعهم طبعا، وخلقهم وهي الطبيعة التي طبع عليها".[3]

[1]- DAUZAT Albert,opcit, p488.

[2]- أندري لالاند:الموسوعة الفلسفية، المرجع السابق، م3، ص987.

[3]- ابن منظور:لسان العرب المحيط، المرجع السابق، م1، ص560.

9- **التأويل**Hermeintique، "مشتقة من الكلمة الإغريقية Hermeneutike"[1]المتضمنة، على كلمة "Techne"والتي: "تحيل إلى الفن أو الاستعمال التقني لآليات والوسائل اللغوية المنطقية التصورية، الرمزية واستعارية قصد الكشف عن حقيقة شيء ما".[2]

لغة: "أول، الأول، الرجوع، أول إليه الشيء رجعه، وأول الكلام وتأويله دبره، وقدره، وأوله وتأوله فسره، وقوله عز وجل * ولما يأتيه تأويله* أي لم يكن معهم علم تأويله".[3]

10- **الفهم Entendement**: "في الاصطلاح الكانطي، هو الوظيفة الفكرية التي تربط الإحساسات بعضها البعض، بواسطة المقولات وتقابله التي بها حدس الأشياء في إطار الزمان temps والمكان lieu والعقل raison التي يطلب المطلق وراء الظواهر"[4]

11- التفسير Exégèse: "أطالب، التحقيق".[5]

---

[1]- DAUZAT: ibid, p370.

[2]- شوقي الزين محمد: الفينومنولوجيا، فن التأويل، مجلة الفكر والنقد، العدد 16، ص75.

[3]ابن منظور، المرجع نفسه، م1، ص187.

[4]-م حمود يعقوبي معجم الفلسفة، المرجع السابق، ص128، ص129.

[5]-وهبة مراد : المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص59.

الفصل الأول

علمية التاريخ

المبحث الأول: في طبيعة المنهج (تاريخي –تجريبي)

المبحث الثاني: انعكاس المنهج التجريبي على دراسة التاريخ

المبحث الثالث: علمية التاريخ في ضوء مدرسة النقد التاريخي

المبحث الأول:في طبيعة المنهج(تاريخي–تجريبي)

لعل أهم شيء يميز المعرفة العلمية connaissance scientifique، أيا كان مجالها أو ميدانها هو التنظيم organisation باعتباره مقياسا يقاس به مدى علمية أي نوع من التفكير réflexion*، يقوم به الإنسان، أمام عالم Monde** مليء بالحوادث المتشابكة والمتداخلة وهذه هي مهمة العلم لكن كيف يحقق العلم هذه المهمة في ظواهر متشابكة ومعقدة مفتقرة بذاتها إلى التنظيم؟

إن وسيلة الباحث في ذلك إتباع المنهج Methode، أي إتباع طريق محدد يعتمد على خطة واعية تميز العلم بوضوح عن أنواع المعرفة الأخرى الغير ممنهجة، يقال: "إن العلم في صميمه معرفة منهجية" [1] لذلك كان كل تقدم معرفي بهدف بلوغ الحقيقة vérité مرتبط ارتباطا وثيقا بالمنهج يختلف باختلاف أنواع العلوم، وتعددها فلكل علم منهجه الخاص به أو لكل "علم قواعده وعملياته الخاصة تتيح له أن يحصل على المعرفة السليمة في طريق بحثه عن الحقيقة" [2] كعلم التاريخ معتمدا على المنهج التاريخي الاسترادادي، وكعلم الطبيعة مستندا على المنهج التجريبي فما طبيعة كلا المنهجين وماهي خطوات كل واحد منهما؟.

---

*عند (لوك lock): هو تجربة باطنة واقعة على أحوالنا النفسية، أي الشعور ويفضل لوك لفظ "تفكير" على لفظ شعور، وهبة مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص59.

**فيتاغورس، أول من سمى الشيء المحيط بالكل عالما، لما فيه من ترتيب، مجموع الأجسام البسيطة كلها، العالم المحسوس sensible هو موضوع الإدراك الحسي، وعالم الماهيات، المثل اصطلاح متداول، ابتداء من الأفلاطونية الجديدة، المرجع نفسه، ص135.

[1]–الدسوقي عاصم البحث في التاريخ، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص25.

[2]– الشنيطي محمد فتحي: أسس المنطق والمنهج العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، 1970، ص 162، ص163.

1-**المنهج التاريخي**: لقد تعاظم احترام العلم الطبيعي وتم تعليق الآمال به بعد النتائج المثمرة التي حققها، لذلك كانت أبرز انشغالات العلوم الإنسانية sciences humaines* والتي يعد علم التاريخ فرعا من فروعها، مسألة المنهج كسلوك معرفي تسعى من خلاله معالجة قضاياها كأي علم موضوعي، يكشف عن الحقائق بعيدا عن التفسيرات الخرافية والأسطورية فالاستفادة من التاريخ لا تتحقق قريبا من هذه التفسيرات بل باستبعادها لضمانة الموضوعية objective وصدق الخبر التاريخي وهذا الاستبعاد يشترط مجموعة من القواعد أو الأسس تشكل لنا ما يسمى بالمنهج التاريخي: "طريقة للوصول إلى المبادئ والقوانين العامة عن طريق البحث في أحداث التاريخ الماضية، وتحليل الحقائق المتعلقة بالمشكلات والقوى الاجتماعية التي شكلت الحاضر" [1] لجعلها في خدمة الدراسات العلمية الإنسانية على وجه التحديد وتوجيه البحوث وتعميق فهم الباحثين ورؤياهم حول المواضيع ذات البعد التاريخي.

إن ما فرضه التطور العلمي وما أملته التجارب جعل علم التاريخ يتحرر كذلك من طابع الفن art، ويقترب بعض الشيء من العلوم الاستقرائية لتزداد براعة وقوة المؤرخ في عرض مادة التاريخ، التي تعكس لنا حقيقة الماضي وحياة الأمم، وهذا ما أكده (تريفليان Trefilian) في قوله: "إن التاريخ ليس له ولم يكن له قط ما للأدب خالص من حرية أدبية)... (بل يجب أن يكون قائم على منهج علمي صارم الذي نقصد به إظهار حقيقة الماضي".[2]

فأهمية المنهج التاريخي إذن مرتبطة بتحديد مقصده وبتحقيق هدفه العلمي، المتمثل في التعرف الموضوعي على الحقيقة التاريخية لكن ينبغي علينا أن نلاحظ أنه ليس المقصود بالحقيقة

---

*موضوعها الإنسان من حيث هو كائن متميز عن غيره من الموجودات الأخرى، ولهذا السبب يستبعد منها علم التشريع وعلم وظائف الأعضاء، وهبة مراد: المرجع السابق: ص147.

[1]- غريب عبد السميع غريب: البحث العلمي الاجتماعي، مؤسسة الشباب الجامعي، الإسكندرية، د.ط، 2003، ص138.

[2]- سعيدوني ناصر الدين: أساسيات منهجية التاريخ، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، د.ط، 200، ص10، ص11.

التاريخية historiqueVérité، الوصول إلى حقيقة مطلقة absolu، فمن ذا الذي يمكنه أن يعرف الحقيقة المطلقة في الماضي؟ أو الحاضر؟ وهل يمكن للإنسان أن يعرف حقيقة ذاته تمام المعرفة؟.

إن الحقيقة التي يصل إليها المؤرخ هي صحيحة نسبيا relativement وكلما زادت نسبة الصدق فيها كلما كانت: "كل دراسة للتاريخ ومتغيراته تشترط استنباط منهجه، واستعماله في البحث من أجل المعرفة العلمية" [1]، وهذه الأخيرة ما هي إلا الإجابة النموذجية عن الأسباب cause*، أو الافتراضات présupposition** المحددة كمنطلقات يضعها المؤرخ أثناء بحثه.

لا يدرس التاريخ عفوا ولا اعتباطا arbitraire، بل ثمة مراحل يسير عليها الباحث ليبلغ الحقيقة التاريخية فإلى جانب الصفات التي لابد ن تتوفر في المؤرخ بما في ذلك عملية جمع الأصول والمصادر وإثبات صحتها لتحديد العلاقة بينهما لابد على هذا الأخير أن يعمل على إنشاء الصيغ التاريخية إذ هناك صيغتان هامتان للمنهج التاريخي، هما صيغة الزمن وصيغة الموضوع.

أ- صيغة الزمن: عندما يفترض الباحث موضوع دراسته يلجأ إلى الهيئة التي يبني عليها هذه الدراسة والمتمثلة في التتبع الزمني للحدث والأثر إذ ينطلق المؤرخ من دراسة الأحداث سواء من الماضي إلى الحاضر أو من الحاضر إلى الماضي قصد كشف أسبابها، وأخذ العبر منها لبناء المستقبل فتحديد: "فترة البحث أو الدراسة وتحديد نقطة البداية، حسب الموضوع يجعل أسبابه وحقيقته كامنة في الماضي وأهدافه واضحة في الحاضر، وغايته ماثلة في المستقبل".[2]

ب- صيغة الموضوع: يستوجب البحث في المواضيع المتشابهة عن طريق الإيصال الموضوعي أو ما يسمى بـ "وحدة الموضوع"، فكثيرا ما يصادف المؤرخ مواضيع متشابهة مع وجود اختلاف وفارق

---

[1]- عقيل حسين عقيل: فلسفة مناهج البحث العلمي، مكتبة مدبولي، د.ط، 1999، ص53.

*معنى عام كل ما كان له تأثير أيا كان، ويقصد به معنى العلة، فيقال عن الله، السبب ولكن لفظ العلةأدق وأكثر شيوعا عند الفلاسفة، مراد وهبة: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص108.

**تعني نقطة البداية في البحث والبرهان، " يقول هيغل، ليس في إمكان الفلسفة أن تفترض مسبقا موضوعا معينا، أو منهجا محددا، المرجع نفسه، ص22.

[2]-عقيل حسين عقيل: المرجع نفسه، ص60، ص61.

على مستوى الزمني، بين هذه المواضيع كأن تقع حادثة ما، في عدة مجتمعات وفي عدة أماكن، لكن مع وجود اختلاف في زمن حدوثها.

فيتبع الباحث طريقة دراسة الموضوع من الحاضر إلى الماضي أو العكس، وذلك بالاعتماد على الصلة الموضوعية وليس الصلة الزمنية، ومن هنا يمكن القول: "أن المنهج التاريخي، منهج يعتمد على التحليل analyse* المنطقي والعلمي في تفسير طبيعة الأحداث)...(فهو منهج الأخبار الواضحة سواء كانت مسلمات أو قوانين أو حقائق أو نتائج بينية".[1]

2- **المنهج التجريبي**: إنه بظهور العلم الحديث واكتساح مفاهيمه لمختلف مجالات الحياة، قد أثار انشغال الفلاسفة المحدثون في ضرورة نقد طرق البحث القديمة، والدعوة إلى مناهج جديدة تعيد من خلالها الفلسفة صياغة إشكاليتها وأفكارها.

هذا الانشغا ل بالطبع يمثل فترة انقلاب مذهل في كيفية تمثل الناس للكون univers، وطريقة تفكيرهم حول الأشياء من أجل التنبؤ prévoir بها والتحكم فيها بدل فهمها وتبيان أهميتها كمعطى إيماني فغرض العلم إذن ليس الانسجام مع الطبيعة أو "تمجيد الإله"، بل السيطرة على الطبيعة، التي طالما دافع عن هذه الفكرة الفيلسوف المحدث (فرانسيس بيكون) francis bacon (1561-1621).

لقد أصدر (بيكون) كتابه الأورغانون الجديد nouveau organun** محاولة لإصلاح التفكير الإنساني، من الميول الذاتية والانفعالات للحصول على معرفة يقينية certitude

---

*في مقابل التركيب synthèse، يضع (ديكارت) (Descartes)، من التحليل القاعدة الثانية من قواعد المنهج، والغرض منه، الوصول إلى الطبائع البسيطة التي هي أساس كل علم، والتحليل على ضربين: النظري، يجري داخل الذهن والثاني في الواقع التجريبي، وهبة مراد، المعجم، المرجع السابق، ص40.

[1]- عقيل حسين عقيل: المرجع نفسه، ص62، ص63.

**يشكل هذا الكتاب عرضا كاملا للطريقة التجريبية، وهو ينقسم إلى قسمين في القسم الأول: ينقد بيكون الأحكام المسبقة، وفي القسم الثاني: يعرض طريقته في البحث العلمي، انطلاقا من التجارب للوصول إلى القوانين، روني إيلي ألفا: موسوعة الفلسفة والفلاسفة مرا، جورج نحل، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990، ص305.

وموضوعية بعيدة عن الغموض، مستخدما الاستقراء induction كمنهج يبعد كل الأفكار الشائعة والتصورات الميتافيزيقية conceptions métaphysiques التي غالبا ما يفرزها الجهل بمعرفة أسباب الحوادث والظواهر، فالمنهج الاستقرائي نموذج عن معرفة ترى أن "العلم لا يقتصر على ما فوق الطبيعة".[1]

من هنا يبدو أن العنوان الذي أعطاه (بيكون) لمؤلفه المنهجي، مصبوغ بصبغة واقعية réalisme محضة لكن الصيرورة devenir التاريخية لتطور الفكر تجعلنا نأخذ بعين الاعتبار الإرهاصات الأولى للفكر الواقعي، ك(أرسطو طاليس Aristo Thalis) (384-322) الذي أقام فلسفته على واقعية الجوهر Substance وواقعية الوجود Existence فالجوهر والأشياء موجودات عينية concrètes لاشك في وجودها.

في هذا الصدد يعلق (سالم يفوت) حول مفهوم (أرسطو) عن الواقع بالقول: "إن مصدر اليقين الرياضي certitude mathématiqueفي نظر (أرسطو) هو أن الفكر لا يدرس سوى ذاته ولا يعالج سوى عمليات تجريدية من خلقه فمعيار critirium* صدقها هو صوريتها أم معيار صدق العلوم الطبيعية فيقوم على واقعيتها وتجريبيتها".[2]

إن هذا الاعتبار الذي قدمه (سالم يفوت) وكغيره من المشتغلين بتاريخ العلم وفلسفته، يضع الإسهامات المنهجية والمعرفية لدى (بيكون) موضوع النقد لأنها لا تمثل خروجا من الإطار الأرسطي بل تعد استمرارا له في اعتبار الواقع هو معيار صدق النظريات وأم صياغة هذا الواقع رياضيا كعملية تجريدية صورية فهي دون منفعة في نظر (أرسطو) وكخطوة بعيدة كل البعد عما قدمه (بيكون) يقول (سالم يفوت): "إن روح الاستمرارية، والتبعية لأرسطو قائمة)... (وهذا

---

[1]- الشاروني الحبيب: فلسفة فرنسيس بيكون، دار التنوير، بيروت، ط1، 2005، ص22.

*نموذج مشخص أو مقياس مجرد لما ينبغي أن يكون عليه الشيء ويراد فيه العيار وهو ما يجعل قياسا ونظاما للشيء، والقاعدة هي القضية الكلية المنطبقة على جميع جزئياتها أو النموذج المثالي الذي تنسب إليه الأحكام جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الشركة العلمية للكتاب، بيروت، د.ط، 1994، ص399.

[2]- يفوت سالم: فلسفة العلم المعاصر ومفهومها للواقع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1986، ص38.

يكشف كشفا واضحا عن نوايا بيكون في عدم الانفصال، وعن رغبته في إجراء القطعية الضرورية لكل تجديد حقيقي".[1]

لكن مشروعية قبول المنهج البيكوني أو حتى انتقاده نقدا بناء لا يتحقق إلا من خلال مراعاة الباحث للظروف التي مر بها (بيكون) في عصره، والتي صنعت فكره "فمكتشفات العصر، وما صحبها من ثورة، لاسيما في مجال الصناعة، هي من أدت إلى شعور الإنسان بازدياد سلطانه على الأرض"[2]، وهو نفسه الشعور الذي راود (بيكون) بالعمل على الاستقراء، فلا يمكن أن نعيب على منطقه أو حتى رفضه رفضا مطلقا وفق معايير تشكل البنية الذهنية المعاصرة لم تعرف هذه المعايير في وقته.

ولعل أهم شيء يميز (بيكون)، هو نقده للفلاسفة الكلاسيكيين المسؤولين عن الجمود الفكري الذي أصاب الإنسان، إذ حولوه في رأيه إلى كائن جامد وسلبي يتلقى التعاليم من الخارج ويؤدي عليه من واجبات وكأنه صنم ميت في الوقت الذي كان يجب عليهم ملاحظة الطبيعة وتفسيرها لا تقديس العقل وتأهيله.

إن أهم انتقاد يوجهه (بيكون) للفلاسفة الكلاسيكيين هو نقده للقياس syllogisme* الأرسطي الذي: "لا يهتم بالطبيعة، فهو استدلال صوري inférence formel همه فقط صحة الانتقال من مقدمات إلى نتائج)... (والانتقال من أفكار جزئية محسوسة، لجعلها أفكار عامة مفترضا أنها مقدمات صادقة فهي إلا أفكار شائعة قد تكون غالبا كاذبة" [3] فماذا يقصد

---

[1]- المرجع نفسه، ص39.

[2]- الشاروني الحبيب: المرجع السابق، ص177.

*قول مؤلف، من أقوال، إذا وضعت، لزم عنها بذاتها، لا بالعرض، قول آخر غيرها اضطرارا، فماهية القياس، تقوم في لزوم النتيجة، من مقدمتين، هذا اللزوم ضروري، وهبة مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص177.

[3]- زيدان محمود فهمي: الاستقراء والمنهج العلمي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط 1، 2002، ص85.

بالاستقراء؟ وكيف يمكن أن يكون هذا المنهج مناسبا للخرق ستار الطبيعة والكشف عن أسرارها بعد النقد الذي قدمه (بيكون) للمنطق الأرسطي؟

إن المنهج الاستقرائي هو المنهج الذي يبدأ بالجزئيات ليصل منها إلى قوانين عامة يعتمد على أمرين الأول يعني أنه إذا ظهرت حالة واحدة سالبة تخالف الملاحظة التي سبق التوصل إليها، فلابد من رفض القانون الذي تأسس بناءه على الملاحظة الأولى، والأمر الثاني إن إثبات صحة قانون ما، يكون بإثبات أن كل القوانين lois والنظريات المعارضة له خاطئة، "فقد اعتبر (بيكون) القانون العلمي يقدم تفسيرا للملاحظة، والتجارب وكل حادثة من الحوادث الطبيعية، تتحدد عن طريق حادثة أخرى سلبية"[1].

إن العقل البشري، يضع على عاتقه مهمة كشف القوانين التي تتحكم في الطبيعة ومتغيراتها وفق خطة واعية تنظم هذه المتغيرات رغم تعقيدها بواسطة المنهج التجريبي فماهي خطوات هذا المنهج؟

1-**الملاحظة**: Observation: تختلف ملاحظة الرجل العادي في حياته اليومية عما يلاحظه رجل العلم صاحب النظرة النقدية الفاحصة للظواهر قصد كشف عما هو جديد فيها، ليصبح جزء ممكنا لنسقه المعرفي فأية دراسة علمية لابد أن ترتبط بالملاحظة غير العادية، داخل المخبر بهدف بلوغ الدقة"[2].

2- **الفرض**: Hypothèse* هو نقطة البداية اللازمة، لكل استدلال تجريبي بالرغم من افتقاده المضمون الكمي، ولإمكانية انطباقه مباشرة مع العالم الواقعي الفعلي لكن "هذا لا يمنع البحث

---

[1]- بلقاسم سلاطنية، الجيلالي حسان: محاضرات في المنهج والبحث العلمي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ط، 2007، ص44.

[2]- محمد علي ماهر عبد القادر: فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، د.ط، 2003، ص48.

*مبدأ القوانين، وعند أرسطو الفرض هو مقدمة البرهان، إذا كانت أصادقة، فتكون لازمة كنتيجة وهبة مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص159.

العلمي، من اللجوء إليه، مدام هذا الفرض يقع في منتصف الطريق بين المعطيات الحسية وبين القوانين النظرية التي نصوغها لنعاود تطبيقها".[1]

3-**التجربة**: Expérience[**] هي المحك الأساسي لاختبار القوانين والنظريات العلمية، والعنصر المهم الذي يجمع بين الملاحظات الأولية والفروض، ويتجلى ذلك فيما يذهب إليه الباحث إلى أخذ العينات وإجراء التجارب عليها.

4- **القوانين**: Lois يعتبر القانون هو النتيجة الأخيرة التي يتوصل إليها الباحث طيلة مشواره العلمي، يرتبط بشكل عام، مع موضوع العلم أخذ جميع الدارسين إلى الاتفاق بشأنه هذا ما يؤكد عليه (لندبرج) (Lund Berg) حين يقول: "أن محتوى العلم، في شكله الناضج ليس إلا مجموعة من القضايا التي يتم التأكد من صحتها وهي مترابطة مع بعضها البعض تشكل نسقا يبدو في ضوءه قواعد معينة".[2]

إن العلم هدفه المعرفة الواضحة للعلل والأسباب، "عندما يقوم بدراسة علاقات معينة بين أهداف معينة مؤمنا بأن هناك حقيقة ثابتة، هي التغير لأن المنهج التجريبي، ليس شيء ثابت على الدوام، فكل جيل يضيف إليه تغيرات، وبالتالي يغير فيه حسب المقتضيات.

كيف يمكن أن يكون هذا المنهج مناسبا للدراسات التاريخية ويا ترى ما هي الكيفية التي انعكس بها هذا المنهج على معرفة التاريخ وحقائقه؟.

---

[1]- جميل عزيز، ماجدة مرسي: النظرية العلمية في الفكر المعاصر، المكتب العلمي للنشر والتوزيع، الإسكندرية، د.ط، 2001، ص186، ص187.

[**]التجربة عند كانط(Kant) ليست مجرد مادة للمعرفة بل تنطوي على المعرفة في الاتفاق بين الطبيعة وقوانين الفكر، وعند برنارد claud Bernard هي ملاحظة مستثارة يقصد بها التحقق من صدق فكرة ما، وهبة مراد، المرجع نفسه، ص46.

[2]- جميل عزيز، ماجدة مرسي:المرجع نفسه، ص188- ص189.

المبحث الثاني:انعكاس المنهج التجريبي على دراسة التاريخ.

يشكل انعكاس المنهج التجريبي على الدراسات التاريخية EtudesHistoriques لحظة الخروج من العهد اللاتاريخي Non Historiqueالعهد الذي أسقط فيه التاريخ من قائمة العلوم المصنفة لاسيما في المرحلة اليونانية فما هي ملامح هذا العهد؟.

لاشك أن (أفلاطون Platon) (427-347ق.م) من خلال نظريته في المعرفة يتعذر الحديث عن التاريخ كتغير حدثي لأنه يؤمن كل الإيمان بوجود حقائق أبدية éternité* الموجودة في عالم المثل Monde Idéal، وأما الحقائق الحسية فهي نتاج الوهم Illution والخطأ، لذلك كان العقل وحده الكفيل بإلغاء كل تغير والانتصار إلى الثبات أو إلى المبادئ العليا بواسطة الجدل الصاعد، Dialectique Axen**.

إلى جانب تلميذه (أرسطو) الذي اعتبر التاريخ ركاما من الوثائق وربط المعرفة التاريخية بمظاهر الذاكرة Mémoire*** بل وجعل الشعر Poésie أقرب إلى العلم يقول: "وعلى هذا الأساس، فإن الشعر يكون أكثر فلسفة من التاريخ أو أعلى قيمة منه، لأن الشعر عندئذ يميل إلى التعبير عن الحقيقة أو الفردية"[1].

---

*يرادف الأزل في قولهم: "أعلم أن أبده تعالى عين أزله، وأزله عين أبده، والأزل استمرار في الوجود في الماضي إلى غير نهاية، فهو ما لا يكون مسبوقا بالعدم، وهبة مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص12.

**يرفع الفكر من الإحساس إلى الظن، ومن الظن إلى العلم الاستدلالي، ومن العلم إلى العقل المحض، جميل صليبا: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص485.

***وظيفة عقلية تقدر على استعادة الماضي، ويميز (برغسون) (Bergson) بين نوعين: ذاكرة عادة M. Habituelle بالتكرار، وذاكرة بحتة M. pure وهي تصور حادثة انطبعت في الذهن، وهبة مراد: المرجع نفسه، ص99.

[1]- أرسطو : فن الشعر، تر إبراهيم حمادة، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، د(ط.س)، ص14.

بالإضافة إلى هذه الاعتبارات التي شكلتها الفلسفة الأفلاطونية والأرسطية يمكن اعتبار مرحلة القرون الوسطى [*]، هي الأخرى تشكل وجه من وجوه العهد اللاتاريخي التي لم يستطع الإنسان حينها أن يؤرخ لماضيه أو حتى أن يتنبأ بمستقبله بحرية فلا مجال للحديث عن العقل أو التجريب بل العقيدة الإلهية théocratique في الديانات religions تجعل الله حضورا قويا في حركة التاريخ والتحكم في إرادة البشر وأوضاعهم ك "المسيحية christianisme– التي قدمت مفهوما لتاريخ يبدأ بخلق création الله للإنسان وينتهي بيوم الكينونة النقطة التي عندها تتوقف الأرض عن الوجود، وبالتالي تتوقف كل الأحداث التي تقع على الأرض".[1]

فالتاريخ بهذا بعيد عن العلمية وقريبا من الإيمان الذي فرضته سلطة الكنيسة "لأن الحكمة المسيحية هي التي تكشف عن أصله ومساره وغايته"[2]، ومن هنا نتساءل كيف هي ملامح مرحلة الخروج من العهد اللاتاريخي؟ أفعلا علمية التاريخ تتوقف عند حدود المنهج التجريبي؟ وماذا لو سلمنا بأن كل علم منهجه ألا تكون عملية إحضار التاريخ إلى حظيرة العلم الطبيعي، محاولة فاشلة وفق هذا التسليم؟.

لقد انعكس المنهج التجريبي على الدراسات التاريخية خصوصا ما أثارته كتابات (بيكون) "الأرغانون الجديد" "تقدم العلم"، في أوساط مؤرخي التاريخ، بحيث شكلت هذه المؤلفات في حقيقة الأمر نقطة بداية الانتقال من الناحية الفلسفية إلى الناحية التاريخية، أو من النظر إلى العمل يقول (الدسوقي عاصم): "لقد ساعد على استقلال علم الإنسان من سيطرة الكنيسة النزعة

---

[*] إن مثل هذا الحكم لا يصدق بإطلاق على المرحلة الوسطى لأن واحد كابن خلدون كونه مؤرخا، وفيلسوف، وعالم اجتماع قد ساهم محاولا تحقيق العلمية، والموضوعية عندما وضع علم العمران، كمقدمة لفهم الحياة البشرية، يستطيع المؤرخ من خلاله فحص الحوادث التاريخية بعيدا عن الماورائيات.

[1]–زينب محمود الخضري:- لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط1، 1992، ص42.

[2]– المرجع نفسه، ص10.

النقدية لعصر التنوير lumière*، وتطبيق منهج العلم الاستقرائي على التاريخ من خلال جمع أكبر عدد ممكن من الوقائع التاريخية وتحليلها ونقدها"[1].

لعل محاولة (جامبا تيستافيكو Giambattistavico) (1668-1744)، خير دليل على ذلك عندما أخضع دراسته للتاريخ إلى المنهج التجريبي، من أجل إضفاء الصفة العلمية بل بجعل التاريخ علما على نسق العلوم الطبيعية، فإلى أي حد استطاع ذلك؟.

عندما اتجه (بيكون) في مشروعه التأسيسي إلى الإقرار بأن العقل البشري تعيقه عدة شوائب لإدراك الحقيقة بما فيها المغالطات والأخطاء التي يسميها الأوهام Idoles**، أو الأصنام يقدم (فيكو) هو الآخر للمؤرخ أوهاما على شاكلة أوهام (بيكون)، "يجب مجاوزتها Dépassement*** ليكون الخبر التاريخي أكثر مصداقية وموضوعية ويخرج عن كونه معرفة احتمالية"[2].

هذه الأوهام تعود إلى الطبيعة البشرية الفردية لكل إنسان من حيث أن له مزاج خاص فهي تصدر من استعدادات أصلية وعن عادات مكتسبة بالتربية éducation والعلاقا ت الاجتماعية، "إنها بمثابة الكهف الأفلاطوني caverne platonienلا ينظر إلى العالم إلا من خلاله، ولا يرى إلا ما يتواءم مع ظلاله" [3]، فماهي إذن هذه الأوهام؟ وفيما تتمثل، وهل تحديدها كاف لبلوغ الحقيقة التاريخية؟.

---

* حركة فلسفية ظهرت في القرن 18، تعتقد بأن العقل يقوم على فكرة التقدم، والتحرر من السلطة والتقاليد، وهبة مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص64.

[1]- الدسوقي عاصم البحث، في التاريخ، المرجع السابق، ص35.

** - عند بيكون الأوهام عيوب في تركيب العقل تجعلنا نخطئ فهم الحقيقة، وهبه مراد: المرجع نفسه، ص34.

*** - تستعمل في الفرنسية قريبا من الكلمة الألمانية Aufeben، بالمعنى الذي استعمله هيجل ومتابعوه، لها معنيان: الشطب والإلغاء، مثال على ذلك ما يقوله كانط في محوه للمتعالي فتحا للمجال أمام الإيمان، أندري لالاند: الموسوعة الفلسفية، المرجع السابق، م2، ص492.

[2]- تأليف جماعي: تراث الإنسانية، الدار المصرية للتأليف، مج3، د(ط.س)، ص555.

[3]- الشاروني الحبيب: فلسفة فرانسيس بيكون، المرجع السابق، ص52.

1-**أوهام القبيلة** Tribus: تعد أوهاما طبيعية لدى البشر بصفة عامة ترجع إلى نقص العقل الإنساني إذ أنه يعمم، حيث لا يجوز التعميم ويتوهم الأشياء لا أساس لها لمجرد أنها صادفت هواه ورغباته الخاصة، "فأمانينا تتحكم في اتجاه تفكيرنا وبوجه خاص توقعنا أن نجد في الظواهر نظاما يزيد على ما هو موجود فيها فعلا، وهكذا نميل في الظواهر نظاما يزيد على ما هو موجود فيها فعلا وهكذا نميل إلى تصديق الخرافات والتنجيم والأساطير" [1]، إنها الأفكار المتأصلة في الذهن غرسها المجتمع في الإنسان "مشتركة بين جميع أفراد النوع البشري".[2]

2- **أوهام الكهف**Specus هي نقاط الضعف الفردية في كل شخص، فهي تتعلق بكل فرد من الأفراد على حدى، على حسب البيئة والتعلم والعادات الموروثة كالشخص المتمسك بالماضي والآخر الشغوف بالتجديد وبالتالي فهي: "أخطاء ليست عامة، وإنما متنوعة، يمكن الإشارة إليها بالإشارة إلى الميول الإنسانية، وما تتضمن من اتجاهات ورغبات كالميل الحزبي، أو سيطرة بعض الأفكار الثابتة"[3].

3- **أوهام السوق**: Fori السوق هنا يرمز للمكان الذي يتبادل فيه الناس السلع بيعا وشراء، أي ما يتعلق بحاجياتهم العملية، ووفق هذا التبادل والاتصال الذي يجري بينهم تنتج ألفاظ أغلبها لا تحمل مدلولات ألفاظ في الحياة نافذة المعنى تؤدي إلى تعطيل شديد للعقل وليست اللغة في حد ذاتها هي مصدر الأخطاء، وإنما سوء استعمالها هو الذي يؤدي إلى الغموض والالتباس "إن أوهام السوق ناشئة من الألفاظ المكونة حسب الحاجات في الحياة العملية"[4].

---

[1]- محمد حمدي زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الفكر العربي، د(ط.س)، ص42-43.

[2]- محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار الحياء، القاهرة، د(ط.س)، ص51.

[3]- زيدان محمود فهمي، الاستقراء والمنهج العلمي، المرجع السابق، ص87.

[4]- محمد غلاب: المرجع نفسه، ص53.

4- **أوهام المسرح**Théâtre يقصد بها جميع الأنظمة والمذاهب الفلسفية التي نتلقاها من وقت لآخر ليست سوى روايات مسرحية بل عقولنا هي مسرح لآراء هؤلاء الفلاسفة نتقبلها تقبلا سلبيا دون نقد ومناقشة، "فهي منحرفة عن الحقائق، كالنظريات الطبيعية والميتافيزيقا عند الإغريق".[1]

وأما الأوهام التي أحصاها (فيكو) فهي تتمثل في تحذيره للمؤرخ من الإسراف في الزهو بالعصور الماضية والقول بتفوق الماضي على الحاضر ودعا الشعوب إلى عدم السقوط في الغرور باعتبارهم أصحاب فضل في خلق الحضارة الإنسانية، "كذلك خطأ اعتقاد المؤرخين أن القدامى كانوا أفضل علم من المعاصرين".[2]

إن عملية تحديد الأوهام لمجاوزتها هي عملية إجرائية ومنهجية في صميمها بالنسبة لـ (بيكون) وفي جوهرها بالنسبة لـ (فيكو)، وضع مذهب تاريخي لا هو مجرد تصنيف Classification تاريخي، ولا هو مجرد إدراج لمعرفة تاريخية، تحت لواء ديني مقدس بل معرفة تاريخية لظواهر بشرية يمكن أن تكون علمية ودقيقة كمعرفتنا لظواهر العالم الطبيعي.

لقد أشرنا سابقا أن أهم شيء يميز العلم الطبيعي هو منهجه بما يحتويه من خطوات كالملاحظة إلى جانب التجربة بل هي في حد ذاتها المحركات الأساسية لكل بحث علمي لا سيما إذا تعلق الأمر بدراسة المادة التاريخية Matière Historique يقول (فوستيل دي كولانج — FoustailDicloange) (1830-1889)، "إن التاريخ علم، كغيره من العلوم، قوامه الكشف عن حقيقة الوقائع)... (المؤرخ كالكيميائي Chimiste الذي يحاول إيجاد وقائعه في الاختبارات الدقيقة، التي يجريها وذاك المؤرخ يبحث عن الوصول إليها بالملاحظة".[3]

انطلاقا من هذا القول يتضح أن بإمكان المؤرخ دراسة الوقائع التاريخية وتنظيمها في قالب علمي، عندما يخضع هذه الدراسة لأهم خطوات المنهج التجريبي (الملاحظة): "فكما يجب أن

---

[1]- محمد حميدي زقزوق :المرجع نفسه، ص43.

[2]- تأليف جماعي: تراث الإنسانية، المرجع السابق، ص555، ص556.

[3]- جوزف هورس: قيمة التاريخ، تر نصر نسيم، منشورات عويدات، باريس، بيروت، ط3، 1986، ص65.

تكون جيدة من طرف العالم، في تسجيله للظواهر ومراقبتها والوقوف على تفاصيلها" [1]، يجب توفير عنصر الملاحظة على المادة التاريخية من وثائق ومخطوطات كشواهد تاريخية يمكن ان نحي بها ملامح حضارة حدثت في فترة من فترات التاريخ وقد انتهت.

تكتمل فكرة انعكاس المنهج التجريبي على دراسة التاريخ، بالاهتمام بالتعليل، فالتاريخ دون تعليل هو مجرد تقويم ذلك أن دراسة التاريخ هي دراسة للأسباب مثلما يبحث العالم عن أسباب حدوث الظاهرة الطبيعية، فمثلا يريد المؤرخ دراسة الحضارة الإسلامية، فعليه أن يبحث في الأسباب والعلل، التي جعلت هذا المجتمع تحدث هذه الحضارة، وعلى جميع الأصعدة مقارنة بالواقع العربي الإسلامي حاليا.

مع حلول المذهب الوضعي Positivisme كان المنهج التجريبي قد انعكس على دراسة التاريخ وقد سرى في الدراسات التاريخية النزعة الطبيعية التي تمثل هذا الانعكاس، بحيث أعطى أصحاب هذا المذهب الشرعية له بما يخدم التاريخ بتحقيق الموضوعية.

لعل الوضعية التي تبناها (أوغست كونت August Conte) (1795-1857) خير مثال على ذلك، عندما طورت النظرة العلمية حول تاريخ الإنسانية كشفت عن "القانون العام للتطور" :"نجد أثرا لها خصوصا في هذه الفترة عند فرنسوا سيمان F. Simiand)وتحديه الكبير في مقاله المنشور في مجلة التركيب التاريخي Revue De Synthèse Historique أين ينتقد التاريخ البعيد عن العلم إلا بواسطة علم الاجتماع Sociologieنحصل بواسطته على تتبع ظواهر قارة ونستقرئ منه قوانين"[2].

استطاعت دعوة (سيمان) أن يكون لها صدى على الكثير من المؤرخين وهي صورة تنعكس إيجابا على (كونت) بالانفتاح على علم الاجتماع الذي استجاب لشروط فرضها التطور العلمي حيث أورد (سيمان) ثلاثة أوهام تشد القبيلة التاريخية:

[1]– محمد علي ماهر عبد القادر: فلسفة العلوم، المرجع السابق، ص48.

[2]– عبد الله عبد اللاوي: ابستمولوجيا التاريخ، دار ابن نديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص54.

1- "**الوهم السياسي**L'idole Politique: إعطاء هيمنة كبيرة ودائمة لتاريخ السياسي

2 - **الوهم الفردي**L'idole Individuelle أو العادة المتأصلة وهي رؤية التاريخ دائما باعتبارها تاريخ الأفراد وليس كدراسة للأحداث.

3- **الوهم الكرونولوجي** L'idole Chronologique وهي العادة التي تترك المؤرخ يدرس الأصول".[1]

ومن جهة الوضعية المنطقية[*] le Positivisme Logique يمكن للتاريخ أن يصل إلى أحكام كلية تسمح بالتنبؤ بالمستقبل فإذا كانت العلوم التجريبية تستطيع تقديم تقرير عن موضوعاتها في أحكام عامة، فإن التاريخ كما يقول (همبل Hempel): "أن يستوعب فردية وقائعه ويرتفع بها إلى درجة العموم".[2]

خلاصة أن المنهج التجريبي انعكس على دراسة التاريخ تقوم على ما يلي:

1- أن يعزل الباحث موضوعه زمانا ومكانا عن سائر العصور والدول كما يعزل العالم الطبيعي الظاهرة الطبيعية.

2- أن يجمع الباحث أكبر قدر ممكن، من الحالات والمعلومات المتعلقة بموضوع البحث، وأن يقوم بدراسة نقدية للوثائق، وهذه المرحلة تشمل المرحلة التحليلية من البحث.

3- الوصول في النهاية إلى أحكام كلية تمكنه من التنبؤ في المستقبل "إذ يستطيع التاريخ أن يستوعب فردية وقائعه، وأن يرتفع بها إلى درجة العموم لا تقل في ذلك كثيرا عن الطبيعة

---

[1]- المرجع نفسه، ص54، ص55.

[*]اسم أطلقه (بلومبرج Blumborg)، و(فايجل Feigel) (1931)، على الحركة الفلسفية الصادرة عن جماعة فينا، محمود زكي نجيب :الموسوعة الفلسفية، المرجع السابق، ص537

[2]- الدسوقي عاصم: البحث في التاريخ، المرجع السابق، ص32.

والكيمياء، فالمؤرخ يفسر درجة اغتيال شخصية تاريخية، أو قيام ثورة، كما يفسر الجيولوجي géologique، وقوع الزلازل".[1]

[1]- المرجع نفسه، ص36.

المبحث الثالث: علمية التاريخ في ضوء مدرسة النقد التاريخي

بالرغم من استخدام المؤرخين للمنهج العلمي وتطبيقه على الدراسات التاريخية Etudes Historiques، رغبة منهم في مسايرة التقدم الذي أحرزه العلم الطبيعي وطموحا في بلوغ الموضوعية، إلا أن هناك اعتبارات أخرى تجعل للتاريخ منهجه الخاص، ينطبق على خصوصيته، ويضمن له العلمية، وذلك بسبب اكتشاف عدة فوارق شاسعة وعديدة بين ما هو طبيعي وبين ما هو تاريخي أي بين ما يمثل منطقة القوانين والحتمية Déterminisme*، وبين ما يمثل أفعال الإنسانية الحرة Libre**، فضلا عن الفرو قات الواضحة في التعميمات فما هو إذن المنهج الخاص للتاريخ والذي يحقق له هذه العلمية بعيدا، عن المنهج الاستقرائي؟

تعتمد الدراسات التاريخية على منهج النقد التاريخي Methode De La Critique، الذي: "يقوم على تحليل المعرفة التاريخية Analyse De La Connaissance Historique، وتركيبه من خلال النقد الداخلي Critique Intérieur، والنقد الخارجي Critique Extérieur والتأويل أو الفهم".

فهو منهج يرجع التاريخ إلى حظيرة العلوم الإنسانية ويقف أمام فشل كل محاولات الفلاسفة الوضعين لإحياء الماضي وبعث الروح فيه، أو بهدف معرفة الماضي الذي ورثه الإنسان والذي يتمثل له في الحاضر معرفة علمية بعيدة عن الاستقراء لكن لا تقل شأن عن معارف بقية العلوم يقول (كروتشهBendetto) (1902-1966): "التاريخ ليس علم اكتشاف القوانين وإنما هو علم الذي يسمح لنا بالفهم"[1]

---

* المدلول المادي: جملة الشروط التي تعين الظاهرة حدوثها وأم المدلول المجرد، فهي جملة العلل والمعلولات، المترابطة ترابط ضروري، والصورة العلمية لنظرية الحتمية، هي البقاء بطاقة بمعنى أن الطاقة باقية خلال تحولات المادة بحيث تكون كل ظاهرة صورة جديدة لطاقة سابقة، وهبة مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص78.

** مفهوم يتحدد سلبا بانعدام وإقامة الدليل عليها، ديديه جوليا، قاموس الفلسفة، المرجع السابق، ص183.

[1] --موافي عثمان:- منهج النقد التاريخي، والمنهج الأوربي، المكتب المصري، القاهرة ، م4، دس، ص11.

من هنا يتضح أن التفسير Explication يقع على عاتق العلوم الطبيعية وأما الفهم باعتباره مرحلة من مراحل النقد التاريخي يقع على عاتق العلوم الإنسانية والتي يعتبر التاريخ فرعا من فروعها، لذلك نتساءل ماهي خطوات هذا المنهج؟ وهل فعلا هناك اختلاف بين التفسير والفهم؟

يتضمن المنهج النقدي التاريخي ثلاث مراحل أساسية، البحث في الوثائق Heuritique ثم مرحلة الدراسة النقدية ثم مرحلة التأويل تميز بين ما يريده الإنسان دائما من حقيقة، وما يريد مجاورته من خطأ في التاريخ وهذه المراحل: "ترسم ملامح الموضوعية التاريخية".[1]

1- **البحث**: أية حادثة تاريخية نستطيع أن نتعرف عليها وقعت في زمن الماضي لتمثلها في الحاضر؟ دون أن نمتلك شواهد أو أدلة لذلك فالنصوص والوثائق والآثار هي بمثابة مهمة للبحث كمرحلة أولية مما "يجعل عمل المؤرخ لا يكون قائما أمام الموضوع التاريخي وإنما أمام أثره"[2].

2 - **مرحلة الدراسة النقدية**: إذا كان السؤال Question مهم في الفلسفة أو في العلم فهو مهم في الدراسات التاريخية لهذا "فالشواهد التي يتوصل إليها المؤرخ يجب أن يسائلها لأن الوثيقة التاريخية لن تكون لها قيمة إلا عندما يطرح عليها السؤال، ويراقبها أي يدرسها دراسة نقدية من أجل فهمها ولهذه العملية جانبان النقد الخارجي والداخلي".[3]

أ- **النقد الخارجي**: التأكد من نسبة الوثيقة إلى مؤلفها الحقيقي، وكذلك التحق من أصالة الوثيقة أو النص Texte من خلال مراعاة الأخطاء أو التزوير.

ب-النقد الداخلي: يختص المؤرخ هنا بمعرفة الهدف من وراء كتابة هذه الوثائق من خلال دراسة

---

[1]-Ricoeur paul:histoire et vérité, édit seuil, 1955,p25.

[2]-Ibid, p25.

[3]- نقلا عن مذكرة لنيل شهادة الماجيستير في الفلسفة، أمينة بن عودة :- مكانة المعرفة التاريخية وتجربة الحقيقة في التاريخ، إشراف بن مزيان بن شرقي، جامعة وهران، السانية، 2003، 2004، ص53.

الحالة النفسية Etat Psychisme لمؤلفها أي التساؤل عن الدوافع والأحوال التي جعلته يكتب أو يحرر النص.

ج–التأويل: المرحلة الأخيرة في دراسة الوثيقة هي بناء الفهم الذي يقوم المؤول بصياغته، وإضفاء الوضوح عليها ومنحها معنى sens يعبر عنها، "فيظهر التأويل هنا كآلية للفهم يعبر عن اللامنطوقات وعن الأفكار غير المصرح بها، إنه يحل شفرة الوثيقة".[1]

انطلاقا من هذا القول الذي صرح به (دلتاي W. Dilthy)(1833-1911): "إننا نفسر الطبيعة وأما الإنسان فإننا نفهمه" [2]. يبدو أن الطبيعة يدرج التفسير Explication ضمن ميدانها وأما الإنسان تتخذ العلوم الإنسانية الفهم Entendement، كأداة لتعرف عليه وعلى تاريخه مما يضمن لهذه العلوم التمايز، فإلى أي مدى يمكن الحديث عن هذا الاختلاف Différence؟ أليس الفهم غايته تفسير الحوادث التاريخية وبالتالي ضمان العلمية للعلوم الإنسانية؟.

يؤكد (دلتاي) أن الفكر يصل إلى مقاصد النشاط الإنتاجي التاريخي بواسطة الفهم كخصوصية للعلوم الروحية عكس التفسير الذي هو من خصوصية العلوم الطبيعية والتي: "يسعى إلى تحديد شروط الظاهرة الطبيعية، ومعرفة أسبابها إمكانية إعادتها"[3] مما يجعل هذه الشروط كعملية بعيدة كل البعد عن إدراك الحياة النفسية للإنسان، لكن (دلتاي)، لايقيم تعارضا بين التفسير والتأويل، بل بين التفسير والفهم لأن التأويل هو آلي الفهم، وفي نفس الوقت نظرية في التأويل.

---

[1]– المرجع نفسه، ص53.

[2]– wilhemDilthey : Critique de la raison historique, ouvre 1, tra, syline mesure, édit, cerf Paris, 1992, p34.

[3]نبيهة قارة: الفلسفة والتأويل، دار الطليعة، بيروت، د(ط.س)، ص62، ص63.

ورغم أن الإنسان هو في كلا العالمين (الطبيعي)، (الإنساني)، يحتل مرتبة المنتج للمعرفة فإن بحسب (فيكو): "يفهم التاريخ لأنه صانع له أكثر من معرفته بشؤون وشروط حدوث الظاهرة الطبيعية، لأنها ناتجة عن قوى غيبية متحكمة فيها".[1]

حدد إمكانية المعرفة الإنسانية التاريخية والاجتماعية يقول (Dilthey): "لقد باشرت البحث في الطبيعة وشروط الوعي التاريخي، مما يعني نقدي للعقل التاريخي" [2]نتساءل ما معنى التاريخ عند (دلتاي) وإذا كانت التجربة هي المحك الأساسي في العلوم الطبيعية لبلوغ الموضوعية فهل هناك تجربة في العلوم الإنسانية يحقق بها (دلتاي) نتائج ابستمولوجية على حسب إن الغرض واضح بين التفسير الذي يحدد أسباب الظاهرة والفهم الذي يفكك Dissociation دلالة النص التاريخي، من معنى أي أن الفهم غايته التفسير حول موضوع معين لكن الكيف أو المنهج المحقق حول هذا الموضوع لبلوغ الغرض يختلف من عالم إلى آ خر يقول (دلتاي): " إدراج نتائج ومسلمات كل العلوم التي تحاول تفكيك علامات الإنسان وتأويلها في صميم مشروعيتها" [3]، من هنا يبدو أن العلوم الإنسانية التي تستعمل الفهم مقارنة بالعلوم الطبيعية التي تستعمل التفسير يمكن أن تبرز نفسها على الصعيد العلمي والموضوعي أو إن صح التعبير على الصعيد الإبستمولوجيÉpistémologique، بما يدعيه؟.

مقارنة بما يتميز به العلم الطبيعي بحث (دلتاي) في الشروط التي تعطي الصلاحية للعلوم الإنسانية فيما يتعلق بالبحث عن الشروط الابستمولوجية، "تجعل الدراسات الإنسانية والتاريخية تظهر درجة اقترابنا من الوضعية في جهدها الفلسفي"[4] وذلك بتحديد معنى التاريخ ومعنى التجربة يتميز معناها نهائيا كما هو الحال في عالم الطبيعة.

---

[1]- المرجع نفسه، ص65.

[2]-ibid, p39.

[3]- Ibid, p36

[4]- مصطفى ناصف: نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 2000، ص81.

إن الجانب الابستمولوجي عند (دلتاي) يتضح من خلال كتابه نقد العقل التاريخي Critique De la Raison Historiqueربط فيه مدى وعينا بالمعرفة التاريخية، أي المجتمعات وإنتاجها بالتاريخ فالإنسان كائن تاريخي أي أن حقيقة الإنسان حقيقة تاريخية لكن بالمعنى النسبي، ينطلق من حادثة محدودة في بيئة وزمن محدودين وبالتالي يكون معنى التاريخ عند (دلتاي) في صميمه انتقادا لفكرة الروح المطلق عند (هيغل Hegel) (1770-1831م)"فالحياة نسبية وتعبر عن نفسها في أشكل متعددة والحياة من خلال التجربة الإنسانية لا تكون هذاالمطلق الذي يهتم به هيجل" [1].

من هذه الفكرة، استطاع (دلتاي) أن يقوم بتلخيص التاريخ من الشوائب الميتافيزيقية وبالتالي يكون معنى التاريخ معنى يساعد الإنسان على التكيف مع مجتمعه بعيدا عن المطلقيات.

يضيف (دلتاي) في كتابه معنى آخر، والمتعلق بتعابير العقل الإنساني عبر تنوع الاعتقادات والأنسقة الاجتماعية، بحيث هذه الأخيرة مرتبطة أساسا بالتجربة فكيف يميز (دلتاي) بين التجربة في العلوم الإنسانية والتجربة في العلوم الطبيعية؟.

إن الأساس المعرفي يتحدد في كل معرفة إنسانية قائمة على التجربة وبما أن حياة الإنسان كمجموعة خصائص، و سلوكات نفسية تعد كقاعدة معرفية لفهم الإنسان، الذي يبني عالمه الاجتماعي وتشكل مجرى التاريخ الفعلي فالمؤول يحاول إعادة عيشها لإنتاجها يقول: "إن إعادة الإنتاج هو إعادة العيش" [2]، وبالتالي إعادة تركيب البنية النقية التي أبدعت العمل الإبداعي، ورغبت في تأمين الفهم الشمولي.

هكذا يعتبر (دلتاي) المؤسس الحقيقي لعلم تاريخ الأفكار فجعل للتاريخ الصدارة بين العلوم الفكرية وجعل العقل البشري الفيصل في مسائل التاريخ فالإنسان عنده كائن تاريخي مجموع

[1]- المرجع نفسه، ص64.

[2]- Ibid, p35.

أعماله نصوص نسمي هذا المجموع بالتراث وتأويله هو فهم أنفسنا بطريقة غير مباشرة أي فهم التعبيرات التي تنتمي إلينا في الماضي، والتراث النشيط دائما في حاضره وقراراته".[1]

الاهتمام بالنص هو الاهتمام بالمعنى من "صميم العملية التأويلية، فالمعنى شيء تاريخي" [2]، وأن نظفر به معناه أن نفهم عملية التفاعل الجوهري بين الجزء والكل، الذي لا يخرج عن إطار الدائرة التأويلية Le Cercle Herméneutiqueوعليه يجب "عدم اختزال هذه الدائرة إلى دائرة مفرغة، أو حتى إلى مجرد دائرة محتملة، فهذه الدائرة، تخفي إمكانية إيجابية لنوع أساسي من المعرفة".[3]

يريد (دلتاي) من هذا القول بأن هنالك علاقة مماثلة بين الأجزاء والكل في حياة المرء بحيث يمكن الحدث أو خبرة أن تغير حياتنا بحيث يصبح ما كان ذا معنى من قبل شيئا لا معنى له، كما يمكن لخبرة ماضية هينة، أن تأخذ معنى عظيما فالكل له علاقة مع الجزء التي ليست شيئا عالية عن التاريخ أو خارجة عنه بل جزء من الدائرة التأويلية.

إن تاريخ الفلسفة، هو تاريخ البصمات الخالدة فبحسب (بول ريكور Paul Ricoeur)(1913-2005) (نيتشه Friedrich Nietzsche)(1844-1900)و(فرويد Freud Sigmond)(1856-1939) كأساتذة للشك Doute، قد شاركوا في وضع هذه البصمة وتم من خلالهم استئناف باب الفلسفة الما بعد الحداثية، إذ تبين من خلالهم أن الحداثة الغربية la Modernité Occidentale*، مشروع زائفPseudo Projet يجب مجاوزته يقول (عبد

---

[1]- نبيهة قارة، الفلسفة والتأويل، المرجع السابق، ص51.

[2]- شوقي الزين محمد: الفينومولوجيا فن التأويل، المرجع السابق، ص78.

[3]- نبيهة قارة، المرجع نفسه، ص52.

*تعني ما هو جديد ومنفتح ومحب للتغيير كما هي تعني التاريخ الحديث والفلسفة الحديثة التي تقترن بكل من بيكون وديكارت في تأسيسها أنظر:

André, la lande: vocabulaire technique et critique de la philosophie, presses universitaire de France, 10è édition, 1968, p640.

اللاوي): "إن نيتشه قد دشن مع فرويد، مرحلة جديدة في الفلسفة الغربية، لحظة الشك أي بدلا من الشك في الأشياء و موثوقيتها كما فعل ديكارت، راحوا يشكون بالعقل الذي يشك بذاته".[1]

لعل الحداثة الغربية، في جانبها المعرفي هي ذلك الوجه الذي يتضح من خلاله قدرة الذات على تحديد قوى إدراكها وجعل للوعي مركزيته أي جعل الوعي، سيدا على الطبيعة تجعلنا نتساءل عن مصير الدراسات التاريخية التي أخذت الوعي العلمي والمعرفي نموذجها المثالي لبلوغ الموضوعية وأسيادا على الحوادث التاريخية، أمام الشك النتشوي والفرويدي؟ وبالتالي التشكيك في علمية التاريخ؟

إذا كنا نيتشاويين، فذلك فسيهيئ لنا الولوج إلى فهم جديد لتاريخ أي إلى إشكالية من نوع آخر بعيدة عن ضرورة محاكاة المناه ج المطبقة في العلوم الطبيعية وبعيدة كذلك عن البحث في الشروط الابستمولوجية إمكانية المعرفة التاريخية كما يدعي (دلتاي)، "فنيتشه، يعمل على تشخيص الرؤية إلى العالم التاريخي، واعتبارها باثولوجية Pathologique واعتبارها لا راهنة Inactuell (بحيث لا يحصر إشكالية التاريخ، في بعدها الابستمولوجي بل إلى عظمته فأين تكمل عظمة التاريخ؟

ترتبط عظمة التاريخ عند (نيتشه) مع الخطاب الجديد الذي أسسه في المنهج لفحص مظاهر الثقافة الإنسانية يتمكن من خلاله تثبيت قواعد لجميع القيم وكشف النقاب عنها، يدعى هذا المنهج بالجنيالوجيا Généalogie*، توقظ التاريخ المندرج في كل مفهوم مستتر خلف التجريدات أو التعميمات أو في وحدة المصطلح.

---

[1]– عبد الله عبد اللاوي: ابستمولوجيا التاريخ، المرجع السابق، ص46.

*من الكلمة اليونانية (Génos)، التي تعني الأصل، و (logos) التي تعني العلم ويقابلها في اللغة الألمانية herknuft، الذي يعني النسب أو الانحدار من زمرة الدم، أو العرف، تنحدر منه طائفة، من مستوى رفيع، أو وضيع، ميشال فوكو: جينالوجيا المعرفة، تر: أحمد السطاتي، عبد السلام بنعبد العالي، دار البيضاء، المغرب، 1988، ص52.

إنه يرفض كل المحاولات التي تسعى لتشميل التاريخ أي رفضه لمن يجعل التاريخ، خاضعا لنظرية ثابتة أو مفهوم أو إيديولوجيا ويؤكد على عظمة التاريخ التي تقف عند حدود الجنيالوجيا، لأنها تمثل الحس التاريخي Le Sens Historique فماذا يقصد به؟.

وفق هذا السؤال، ما معنى الحس التاريخي؟ Que Veut Dire Le Sens Historique نقف موقفا تشكيكيا أمام أعمال المؤرخين المنغلقين على اختصاصاتهم الضيقة، سواء على التي تحاول تقديم حيثيات الحوادث التاريخية بموضوعية تشبه موضوعية العلم الطبيعي، بدليل أن (نيتشه) رفض النموذج العلموي، في صورته الطبيعية، أو على التي تحاول وضع شروط المعرفة التاريخية من خلا تأويل التجربة النفسية الواعية، عبر النص التاريخي بدليل أن (نيتشه) أقام تعايش بين الوعي واللاوعي أي في قراءته الواعية للعمل اللاواعي أمام التقييما ت والتقديرات الناتجة عن إرادة القوة Volonté De Puissance[*].

إن هذه الاختصاصات تقتل الحس التاريخي أي تقتل الملكة التي تجعلنا قادرين على رؤية الظواهر دائما ضمن المنظور التاريخي "فحسن الإدراك والإيمان بالمستقبل يعتمد أساسا سواء على الفرد، أو في الجماعة كونهم خطا يفصل بين الرواية الواضحة، والغامضة إننا يجب أن نعرف الوقت المناسب للتذكر وأن نتبين غريزيا متى يصبح ضروريا أن تشعر تاريخيا ومتى أن تشعر لا تاريخيا وهذا هو الاقتراح الذي ادعوا القارئ إلى اعتباره وبمعنى آخر أن التاريخي واللاتاريخي يعتبران ضروريان، لصحة الفرد والجماعة، ولحضارة ما".[1]

إن هذه الرجة التي أقامها (نيتشه) من خلال كتابه حول "فائدة ومضار الدراسات التاريخية بالنسبة للحياة، هي إدانة للهيمنة الكبيرة، التي مارسها علم التاريخ والفيلولوجيا على كل مظاهر الحياة، في ألماني وأوربا، فالأسئلة والتشخيص الذي بسطه (نيتشه) في كتابه لم يكن ضد التاريخ

[*] عند نيتشه فردية، تحب ذاتها، وتقسو على الغير، بل تقسو على ذاتها، وهبة مراد: المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص10.

[1] – عبد الهر عبد اللاوي،المرجع السابق، ص48.

بل ضد الدراسات التي تهتم بالتاريخ خارج التاريخ، فهي تقتل الحياة وبكثرة ما يغوص المؤرخ بالتاريخ وتفاصيله وتراكم معلوماته ينسى التاريخ. ينسى الحياة، إنه الانتحار أو الموت أي موت المؤرخ في الماضي بسبب مرض الأصول "لذلك كان على المؤرخ في نظر (نيتشه) أن يعرف كيف يستثمر ذلك التراكم للخروج عامة واقتراح تفسير صحي للتاريخ".[1]

أردنا أن نقف موقفا فرويديا في سبيل تقييم الادعاءات التي تفوض العلمية للتاريخ خصوصا تلك التي تنطلق من التجربة النفسية الواعية كقاعدة معرفية من خلال فهم النص التاريخي، أي أن نأخذ بأسلوب التشكيك في الموضوعية التي تدعيها مدرسة النقد التاريخي بعد أن أطاح (فرويد) بمزاعم الحداثة الأوربية، وأزاح الوعي عن مركزيته من خلال فكرة اللاشعور inconscient* وحين أصبح الشعور أو الوعي سوى حالة مؤقتة من حيتنا النفسية. هذا ما يجعلنا نتساءل عن موقع (دلتاي)، من كل ادعاءاته أمام التحليل النفسي ألا تكون ثقافة الماضي كنص في بعده الإنتاجي التاريخي، تكشف عن تجربة نفسية لا واعية وبالتالي يكون فكر (دلتاي) رغم الموضوعية في تأسيسه لعلمية التاريخ من خلال الفهم يحمل بذور من الذاتية؟.

إن النص هو خطاب يعكس نموذجا ثقافيا معين لمجتمع معين أي يعكس مجموع العادا ت والتقاليد بالإضافة إلى نوعية الضوابط الاجتماعية في بعدها التاريخي هذه الأخيرة ترجع إلى مجموع الأسر، أو بالأحرى إلى سلطة الوالدين تشكل لنا باللغة الفرودية، "الأنا الأعلى Super Ego، فهي عادة ما تبدأ في التكون، في بواكير الطفولة، وذلك من خلال التعاليم السلوكية يتلقاها الطفل من الأبوين بأساليب الثواب والعقاب[2]".

---

[1]–المرجع نفسه، ص49.

* هو فعل، وهذا الفعل يتم تلقائيا بواسطة الانعكاس قبل أن يكون سببه قد وصل الشعور، م روزنتال، ب بودين : الموسوعة الفلسفية، المرجع السابق، ص404.

[2]- علي زيعور: مذاهب علم النفس، دار الأندلس، ط1، 1971، ص225.

لكن لا ننسى أن المجتمع هو مجموع الأفراد الذين يشكلونه وكل فرد يتمتع بحياة نفسية كشف (فرويد) عن جهازها إلى جانب الأنا الأعلى، أو كشف عن القوى الشخصية للإنسان التي تؤسس هذا الجهاز "كاللهو متضمنا مجموع الغرائز الجنسية والبدائية يعبر عنها من خلال الأفعال التي تهدف إلى تحقيق التوتر، والأنا Ego يمثل العقلانية حيال اندفاعية الهوا، وغلوائه يتأخر ظهوره عند الطفل بعد مراحل عديدة قبل أن يتكلم باسمه مثل أنا "ألعب"، وقد يكون الأنا "لاوعيا"[1]، من هنا يتضح أن هدف (دلتاي)في إعطاء مكانة للعلوم الإنسانية بوصف التاريخ علم، أي العلم الذي يعبر عن الحياة الإنسانية في شكلها الواعي، يصبح وفق الجهاز النفسي، تعبيرا عن حياة إنسانية لا واعية.

لقد أعجب (دلتاي) بالفلسفة الكانطية التي نقدت الميتافيزيقا، وكل فلسفة ما ورائية أي أعجب بالفلسفة التي بينت حدود المعرفة لموضوعات ما فوق الحس بحيث تنطوي هذه المعرفة بالنسبة لذات على ملكات ثلاث، الحساسة، الزمان، المكان.

فالبحث في حدود المعرفة بالنسبة إلى (كانط) ينطلق منها (دلتاي) للبحث في حدود المعرفة التاريخية، وإرساء فلسفة تاريخ نقدية في خضم إدراكنا للعالم التاريخي لكن معرفة المجتمعات وإنتاجها التي تنطلق من الوعي بها، أي الوعي بالمعرفة التاريخية، على نقاض (كانط) وفق مبدأي (الزمان والمكان) تستبدل بمفهوم العمليات النفسية اللاشعورية التي تخرج عن كل إطار زماني قبلي يقول (فرويد): "إننا نستطيع أن نعوض المناقشة لنظرية كانط)...)وما نعرفه هو أن العمليات النفسية اللاشعورية تخرج في صميمها عن الزمان، ولا صلة لها به على الإطلاق" [2] تكون المعرفة التاريخية عند (دلتاي) غير موضوعية.

[1] - المرجع نفسه، ص226.

[2] المرجع نفسه ،ص227.

الفصل الثاني

بوبر فيلسوف العقلانية النقدية

المبحث الأول: ملامح العقلانية النقدية المعاصرة

المبحث الثاني: بوبر رائد العقلانية النقدية

المبحث الثالث: منهج البحث النقدي

المبحث الأول:ملامح العقلانية النقدية المعاصرة

لعل الحديث عن العقلانية النقدية المعاصرة Rationalisme Contemporaine، هو حديث عن فلسفة تريد أن تؤسس نفسها على حساب الفكر العلمي الجديد Le Nouvel Esprit Scientifique، والعمل على نقد ومجاوزة الطرح الفلسفي التقليدي في وجهه العقلاني والتجريبي.

فلو نظرنا إلى معالم هذا النقد عند (باشلار Bachelard[*])(1884-1962)، في علاقة فلسفة النقض مع دور الفيلسوف أي في علاقة الفهم الباشلاري للمستوى الذي بلغته الفلسفة مقارنة مع المستوى الذي بلغه العلم نجد أن :"الفيلسوف يقوم بدور الرديء في مدرسة العلم المعاصر...) إذ هو متأخر بطفرة عن الذكاء العلمي)... (وإذا أردنا اليوم أن نطرح مسألة التجريد الفلسفي بشكل يهتم به العالم، يجب أن نسلم بأن نظرية مثل نظرية (باركلي Berkeley) (1685-1753) لا ينبغي أن نتصورها حلا ممكنا لمثل هذه المسألة". [1] هذا ما يجعلنا نتساءل عن ملامح العقلانية النقدية المعاصرة والكيفية التي تجعل العلم أثناء التغير الذي يطرأ عليه كقاعدة للفلسفة؟ وبالتالي مجاوزة العقلانية المعاصرة للفلسفات الكلاسيكية؟.

لقد انطلق التفكير الفلسفي منذ البداية على افتراض أصل ثابت وراء الظواهر الكونية المتغيرة، لكن هذا الافتراض شكل تصورا انعكس على الإنسان نفسه مما أدى إلى القول بأن الطبيعة البشرية هي الأخرى تحتوي على جانب ثابت لا يتغير ألا وهو العقل، هذا الأخير حائز بصفة قبلية Apriorie لكل المقولات اللازمة لمعرفة العالم الخارجي الذي يموج بالمتغيرات، سمة كهذه "طبعت موقف الفلسفات التقليدية من أفلاطون إلى كانط)... (إلى أن ظهرت نظرة

[*] إن النشاط العقلاني النقدي المعاصر لم يقتصر على باشلار فقط، وهذا المبحث لا يتسع لذكر كل رواد هذا النشاط.

[1] – جورج كانغيلام: "دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، تلا محمد بن ساسي، مرا، محمد محجوب، مركز الدراسات، الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2007، ص284.

جديدة للعقل بتأثير الثورة العلمية، كان من جرائها انهيار المطلقات وتكريس نظرة تقول بأن للفكر والعقل بنية قابلة للتغير، وأن للمعرفة تاريخا"[1].

هذا بالفعل ما أراد (باشلار) أن يبينه فبدلا أن نعلق الآمال بالعقل الفلسفي الذي ينطلق من حقائق أولية ويحيا على يقين بهوية الفكر، تخيب هذه الآمال مع ما يحرزه العقل العلمي من تطور "فالفيزيائي يضطر أن يعيد ثلاث أو أربع مرات منذ عشرين سنة بناء عقله وبالمعنى الفكري للكلمة أن يعيد بناء حياته"[2].

لكن لابد أن لا نتغافل عن المحاولات التجديدية التي قامت بها العقلانية التقليدية، فالعقل العلمي درجات ولرياضيات بأنواعها "مرتبة أعلى لأنها تمثل مجالا يمكن رصد عمل العقل، في أجلى معانيه" [3]، مثل (ديكارت)، و(سبينوزا Spinoza) (1632-1677)، اتخذوا النظريات العلمية كالرياضيات ومنهاجها أرضية تخدم مسارهم الفكري وترد المعرفة الإنسانية إليها.

إلا أن كانط عمل بتحليل العقل نفسه ورسم صورة جديدة للطبيعة أي الطبيعة النقدية للعقل ينقد ذاته بذاته واضعا بذلك الشروط القبلية التي تجعل التجربة ممكنة "رافعا المفاهيم العلمية، واحتواء نتائجها لصالح نسقه الفلسفي الأكثر مسايرة للعلم النيوتيني" [4]، إذ يمكن القول أن العلاقة بين العلم الحديث والفلسفة كانت هما من هموم (كانط) في مجمل عمله وهي بلوغ مقام النسق بتدعيم وإعلاء من القصد الجوهري للعقل، فهل العالم نسق وحدته قدرة الفكر؟.

إن العقل في نظر (كانط) وفق الشروط القبلية أو المبادئ الثابتة التي تمثل بناءه، تضفي الطابع التركيبي لمعرفتنا بالطبيعة هو ما صار العلم المعاصر يطعن فيه بل لقد تم طعن النسق الكانطي حين جعل المكان صورة حدس خالص لا يختلف أوصافه عن أوصاف التي منحها له

---

[1]- يفوت سالم: العقلانية المعاصرة بين النقد والحقيقة، دار الطلية للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1982، ص65.

[2]- جورج كاتغيلام، المصدر نفسه، ص284.

[3]- بثرته عبد القادر: العقل العلمي في عصر التنوير، المرجع السابق، ص08.

[4]- يفوت سالم: المرجع نفسه، ص64.

(إقليدس Iklidos)(300ق.م)، أو (نيوتن Newton)(1642-1727) خصوصا بعد "تغيير (لوبتشفسكي-Lobatchevski)(1792-1856)لقضية التوازي الإقليدية" لهذا يقول (باشلار): "وقد اعتقدوا أن الفكر الهندسي الأساسي، هو أساس العقل البشري حتى أن (كانط) شيد على هذه الصفة الثابتة)... (فإذا ما انقسمت الهندسة غدا من المتعذر إنقاذ المذهب الكانطي إلا بتسجيل مبادئ الانقسام في العقل ذاته أي بفتح المذهب العقلي"[1]، إن أطروحة مثل هذه تلغي صورة العقل الانغلاقي أي تلغي الفلسفة المغلوقة وتدعو إلى فلسفة لا ينظم دورها إلا العلم، إنها الفلسفة المفتوحة.

من الواقع أن الثورة الانقلابية التي أحدثها (آينشتين (Einstein)(1879-1955) قد حطمت المطلقين النيوتينين الزمان والمكان من خلال نظريته في النسبية، "والتي غيرت فكرتنا عن تركيب العالم الفيزيائي جذريا"[2]، تكون في نهاية المطاف فلسفة العلم الفيزيائي "الفلسفة الوحيدة التي تطبق)... (وأي فلسفة أخرى، تطرح مبادئها بوصفها مبادئ لا تمس وحقائقها الأولى، بصفتها حقائق تامة، وكل فلسفة أخرى تعتز بانغلاقها".[3]

بالرغم من أن (أينشتاين) لم ينبذ ميكانيكا (نيوتن) بل وضعها في موضعها المناسب ضمن هيكل المعرفة الفيزيائية عندما كتب قائلا: "إن خلاصة التطور في أفكارنا عمليات الطبيعة، يمكن اعتبار التجسد أو الامتداد العضوي لأفكار (نيوتن)"[4]، إلا أنه جعل للمكان والزمان في ميكانيكا (نيوتن) حدودا وصار ينظر لكل المفاهيم المتعلقة بهما في نفس المنظار النسبي.

في ضوء هذه الملاحظة ندرك كيف أن العلم عندما تجري عليه تحولات ويتم توسيعه توسيعا تصاعديا بإضفاء الصبغة الجدلية عليها، كما يقول (باشلار): "نعرف الشكل الرياضي بتحولاته،

---

[1]- G. Bachelard: le nouvel esprit scientifique, paris: F. Alcan, 1934, p29.

[2]- عادل عوض : فلسفة علم في الفيزياء آنشتاين، بحث في منطق التفكير العلمي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، د.ط، 2003، ص47.

[3]- جورج كانغيلام:المصدر نفسه، ص285.

[4]- عوض عادل: المرجع نفسه، ص25.

وفي وسعنا أن نخاطب الموجود الرياضي بقولنا قل لي، كيف تتحول، أقول لك من أنت" [1]، يجعلنا هذا القول كذلك ندرك بأن (باشلار) يحاول إيقاظ الفلسفة من سباتها الدوغمائي المنغلق ويعطي لها فرصة تتحول بموجبها إلى فلسفة معاصرة للعلم.

أي العقلانية المطبقة التي تعارض طوبويات العقلانية الكلاسيكية أو النظريات الفلسفية كالكانطية أو الديكارتية للمعرفة بالمعرفة العلمية التي تخلق أنماطا جديدة للمعرفة بصورة مصطنعة إذ لابد أن "نثقف أنفسنا، تثقيفا فلسفيا بجدليات تطورها ذاتها".

إن للعقل قدرة على بناء أي إضفاء الصفة التركيبية البنائية على الظواهر وأثناء عملية التركيب والبناء، يخلق العقل لذاته وسائل عمله، ويطورها ويحددها ومن هنا يبدو لنا أن الوحدة التركيبية الأصلية هي مبدأ كل تركيب معرفي، في نظر كانط، ليست وحدة جامدة بل دينامية)...(وعيب العقلانية الكلاسيكية، عموما أنها أوقفت ذلك"[2].

إلى جانب الطابع الإنتقادي للعقلانية المعاصرة للعقلانيات السابقة عليها بصدد مسألة العقل وطبيعته تنتقد كذلك مزاعم التجريبية أي نقد النزعة الاتصالية التي تعتبر المعرفة العلمية استمرارا للمعرفة الحسية"، [3] فميل التجريبيين إلى أن المعرفة في أصلها حسية يرفضها (باشلار) وينطلق من السمات الجديدة للعلم يقول: "لقد تخلص العلم المعاصر، تخلصا تاما من ما قبل المعطيات الحسية إنه يفكر بأدواته وليس بالأعضاء الحسية"[4].

فالمعرفة العلمية هي ليست معرفة حسية بل هي إلمام إجرائي في صورته الأكسيومية أي بإضفاء الصبغة النظرية مما يجعل الفارق بينهما في درجة التطور والتعقد ومعنى "أن يكون العلم

---

[1] –ibid, p22.

[2]– يفوت سالم، المرجع السابق، ص94.

[3]– جورج كانغيلام، المرجع نفسه، ص289.

[4]– يفوت سالم، المرجع نفسه، ص95.

أكسيوميا، أنه غالبا ما ينطلق من تصوراته نفسها كي يصل إلى الأشياء أي يتخذ من تصوراته المادة الأولى التي يفضي به إلى الأشياء"[1].

إن العقلانية التطبيقية Rationalisme Appliqué نموذج عن فلسفة ترى في العلم "عملا"، حتى وإن صادف المعطيات الحسية إلا أنه يعمل على إعادة النظر فيها يبرز قدرته على فهمها فالعلم يخلق عالما زاخرا، من الموضوعات لا يستنسخها من الخبرة والإدراك الحسي مباشرة بل يركبها وعليه يغدو "العلم، ليس تكرارا حشويا للتجربة"، ومفاهيمه العلمية ماهي سوى تبرير علاقاتي "وليست علاقيتها حاصلة بفعل عملية تجريد للشيء، بل الأشياء نفسها تلقى علاقات من فوق)... (إن مضمون المعرفة العلمية، فوقي ترستندالي أي مضمون إجرائي وليس مضمون شيء".[2]

من كل ما سبق، يبدو أن العقلانية المعاصرة وجدت في شخص (باشلار) نوعا من التفكير الناقد يثير الاضطراب لدى الفيلسوف، في سبيل التقدم الفلسفي في تقدم فلسفة العلوم بالطبع اي أن فلسفة النقض Philosophie De Non تريد أن تخرج الفلسفة وفق هذا الاضطراب بين كهف العقلانية التقليدية، وحتى التجريبية، وبالتالي نقد كل من يدعي ضمانة منهج دائم أساسي ونهائي يقول: "لا ريب في أن خطابا في المنهج لا يستطيع أن يحدد إلى الأبد قواعد الحذر الواجب اتخاذه من أجل تجنب الأخطاء)... (إن شروط خصوبة الفكرة)... (تتغير بتغير الفكر العلمي"[3]، فالفيلسوف لابد أن يعيد خلق ثقافته بالاتصال مع ثورات العلم المعاصر أي أن يستجيب لتغير الفكر العلمي، وبالتالي الاستجابة لعمل العلم، الذي يأبى الانغلاق في أي مذهب إقصائي.

---

[1]- المرجع نفسه، ص94.

[2]- يفوت سالم: المرجع نفسه، ص96.

[3]-G. Bachelard: la philosophie du non: essai d'une philosophie du nouvel esprit scientifique, bibliothèque de philosophie contemporaine, paris, presses universitaires de France, 1940, p38.

إن المهمة الابستمولوجية عند (باشلار) إذن تقديم صورة تخطيطية لفلسفة "وعي العمل" الذي يقع على عاتق الفيلسوف، فلا يكون أقل جرأة ولا أقل عبقرية من العالم، "إن العلم هو جملة من الحجج والتجارب وجملة من القواعد والقوانين وجملة البديهيات والوقائع في حاجة إلى فلسفة ذات قطبين"، [1] هذه الفلسفة ذات القطبين هي وعي العمل أي وعي العلم، تجمع بين التجريبية والعقلانية فالتجريبية تحتاج إلى الفهم والعقلانية تحتاج إلى تطبيق.

[1]- Ibid, p8,p9.

المبحث الثاني:بوبر رائد العقلانية النقدية

يعد (كار بوبر Karl Popper)*، (1902-1995) من أهم فلاسفة القرن العشرين الذين يتوقف عندهم تاريخ الفكر الفلسفي بصفة عامة وتاريخ فلسفة العلم بصفة خاصة ليشيد بدورهم وفضلهم وإسهامهم فكما احتل (هيغل) في القرون الثلاثة الأخيرة، ذات المركز الذي احتله (سقراط Socrate) (470-399)، في الفلسفة اليونانية ووصلت الروح الألمانية ذروتها في فلسفة هذا المفكر الذي أطلق عليها البعض "أنه الفلسفة بلحمها ودمها"يحتل (بوبر) كذلك مكانا في تاريخ الفلسفة المعاصرة وتكفي هنا شهادة (امري لاكاتس Imre Lakatos)(1922-1974)، عندما كتب قائلا: "تمثل أفكار بوبر أهم تطور حدث في فلسفة القرن 20"[1].

لا يقف تأثير هدا الفيلسوف على مواطنيه من النمساويين بل تعداهم إلى الناطقين بالفرنسية والإيطالية وحتى الإنجليزية بل ووصل إلينا نحن العرب مترجما بردائه الأصيل، أو المستعار لا يهم متجاوزين التفصيل عن حياته ومعاناته الحيوية وظروفه العائلية واقفين عنده كطرف يمسك بحبل فلسفة العلوم، أي كطرف يمسك بحبل ما أراد أن يرجع له مكانته الرفيعة ومشروعه الطموح مؤمنا بقيمة العقل ودوره وقدرته متبنيا "النقد" كمنهج لعمل العقل وتقدم المعرفة الذي يقول فيه: "لا أعرف مرادفا أفضل للعقلانية كالنقدية".[2]

فالنقد داخل في نسيج عملية المعرفة، بل في أي عملية من عمليات الحياة وبالتالي هو نفسه مسار التطور وجوهر التقدم لذلك يحق لنا التساؤل عن ما هو الشيء الذي يميزه عن غيره، من فلاسفة العلم ويجعله رائدا للعقلانية النقدية؟.

---

*أستاذ المنطق ومناهج العلوم بجامعة لندن في حولي الأرباع الثلاثة الأخيرة من القرن 20.

[1]- lakatos Imre Popper on demarcation and induction, in paulschilpp, ed, ther, philosopie of karl popper, library of philosophers; V-14,2 vols (open court),1 974, p241.

[2]- بوبر كارل: منطق الكشف العلمي، تر ما هر عبد القادر، القاهرة، د.ط، 1986، ص93.

يمثل عمل بوبر انعطافا كبيرا ذو دلالة ابستمولوجية وفلسفية تشكل في حقيقة الأمر صراعا من الناحية الفكرية بين طرفين: التراث الهائل الذي تركه الأسلاف من جهة ومدى تقبله للجديد من هذا التراث باستخدام أسلوب النقد، النقد الذي تعلمه من أستاذه (سقراط) أي ما يتعلق بنظرية المعرفة، فالإنسان لا يكتسب معارف كاملة وثابتة بل معارفه دائما تحتاج إلى نقد مستمر يقول: "إن تحصيل المعارف كاملة عند سقراط أمر صعب المنال)... (وإنه ناقد لكل ما نتعارف على دقته وصحة اصطلاحات على وجه الخصوص حتى ما يصدر عن أصدقائه المقربين ومواطنيه الصالحين".[1]

إن التجربة الفلسفية عند (بوبر) تقوم على الموقف النقدي ونهاية العهد الدوغمائيDogmatisme فبعد أن كان (ديكارت) أو (بيكون) هم أساتذة البشرية عند البعض، أصبح مع (بوبر) التلميذ ينقد أستاذه كما نقد (أنكسمندر Aniximadnos) (610-547) أستاذه (طاليس Thales) (548) بمعنى أنه ما كان يمكن لتلميذه أن ينقد أستاذه إلا إذا كان قد علمه ذلك، يقول: "خذ الأشياء، كما أراها فما رأيك فيما أراه لتحاول أن تصلح ما علمتك إياه".[2]

وإذا أردنا أن نراعي تقاليد البحث الابستمولوجي العريقة ونضع لبوبر تصنيفا تقليديا لكان هو العقلانية لكنها العقلانية النقدية المختلفة أيما اختلاف عن العقلانية الكلاسيكية بل وحتى عن التجريبية الكلاسيكية لأن المعرفة عنده قائمة، فهو لا يتساءل عن إمكانها بل يتساءل عن مصدرها ليخطأ بذلك كلا من المذهب التجريبي والمذهب العقلاني، يقول: "إن كلا من الملاحظة

[1]- Popper Karl: how Iseephilosophie, graw hill, USA, 1957,p41.

[2]-Ibid, P43

والعقل كما وردا عند التجريبيين والعقليين لم يعد لهما نفس دورهما القديم الآن، بل يؤدي كل منهما دورا جديدا أكثر تواضعا ولم نعد نتحدث عن أي منهما كمصدر للمعرفة"[1].

لعل الخطأ الأساسي الذي وقعت فيه النظرية الفلسفية بصدد منابع المعرفة هو أنها لم تميز بوضوح كاف بين مسائل أصل المعرفة ومسائل صدقها ولنضرب على ذلك مثالا: "إذا قرأت في جريدة الصباح عن هبوط كائن من الفضاء الخارجي بالمدينة التي أقطنها وأنه يقطن نزلا مشهورا فإن الجريدة هي بلا ريب مصدر الخبر أو المعرفة)... (إلا أن التحقق من صدق الخبر، إلا إذا اتجهت نحو المنزل وشاهدت بعيني مقتنعا ذلك الكائن الغريب ومن ثم إذا سألني أحدهم كيف تعرف؟)...(أوضحت له أن هذا السؤال وضع بطريقة خاطئة)...(يمكن أن يحل محله تساءل هو كيف يتسنى لنا اكتشاف الخطأ؟"[2].

الإجابة التي يقدمها (بوبر) على سؤاله كيف يتسنى لنا اكتشاف الخطأ واستبعاده بالطبع؟ فهي نظريات وفروض الآخرين وأيضا بنقد نظريتنا وفروضنا ويعكس القول الأخير، وما ينادي به (بوبر) من اتجاه يعلن أنه مدين به إلى "الإغريق، وهو العقلانية النقدية الذي يختلف تماما عن عقلانية ديكارت وابستمولوجية كانط" [3]، فالفلسفة الديكارتية أو الكانطية في نظر (بوبر) قد أغفلت جانبا مهما من العقل ألا وهو النقد، فهو ليس شيئا ثابتا على الدوام وأن الخطأ حقيقة لابدّ على العقل أن يكتشفه.

إن العقلانية النقدية عند (بوبر) تصحيح لمسار الفلسفة في وجهها المفتوح قائمة على نقد فكرة الحتمية العلمية، والميتافيزيقا التي رفضتها الوضعية المنطقية، فأما من جهة الحتمية العلمية، التي لا يستقيم المنهج التجريبي، إلا بالاستناد إليها إلى جانب مفهوم الإطراد regularit ومفهوم العلية

[1]- Popper Karl: conjectures and refutation, the grout of scientific knowledge, routhdege end kegampaul, london, 1963, p04

[2]-Ibid, p25

[3]-Ibid, p26

causalite "العلم لم يعد يدافع عن هذه المفاهيم أمام نتائج أبحاث الفيزياء النظرية وحركة الإلكترونات ونتائج أعمال داروين وأرنست ماندل وتطورها وانعكاساتها في البيولوجيا المعاصرة".[1]

النتائج التي أحرزها العلم المعاصر هي ما أثارات انشغال (بوبر) لنقد المفاهيم التجريبية، بالإضافة إلى مجموع الملاحظات التي نكررها لتشكيل فرض، وتثبيت صدق هذا الفرض بواسطة التجربة لتأسيس نظرية علمية على حسب إدعاءات التجريبيين، ينقده (بوبر) كذلك لأن النظرية في رأيه تسبق الملاحظة.

هذا ما أشار إليه في بداية فصل النظريات في كتابه منطق الكشف العلمي Logique de La Découverte Scientifique بقوله: "النظريات العلمية قضايا كلية، وهي عبارة عن أنساق من الرموز والعلاقات" [2] ويضيف "يضع العالم فروضا، أو أنساق من النظريات ثم يجري عليها اختبارا في مواجهة الخبرة بالملاحظة أو التجربة"[3]، من هنا يتضح أن النظرية العلمية عند (بوبر) لها لغة رمزية وتأتي من وضع العالم وليست استقراء من الواقع، كما أننا لا نجد تمايزا أو تباينا واضحا بين استخدام (بوبر) لنظرية فرض قضية.

فيما يتعلق بالوضعية المنطقية التي تمثل على الأقل أرقى نموذجا معرفي فلسفي المعادية للفلسفة بمفهومها التقليدي والمعبرة عن استيائها من الميتافيزيقا على أنها زائفة بحيث جعلت مهمة الفلسفة تقتصر على إلغاء مشكلاتها الخاصة، عن طريق توضيح اللغة المستعملة في تلك المشكلات، "خصوصا ما لاحظه (رودلف كارناب R. Carnap)(1891-1970) في العبارات

[1]- لخضر مذبوح: فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، دار العربية للعلوم الناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط 1، 2009، ص13.

[2]- بوبر كارل: منطق الكشف العلمي، المصدر السابق، ص79.

[3]- المصدر نفسه، ص80.

العلمية، والتي هي وحدها يمكن وصفها بأنها قضايا منطقية، وإننا يجب أن نحيل الفلسفة إلى التحليل المنطقي للغة العلم"[1].

فالمعرفة في هذه الحالة تقرير لغوي للواقع الخارجي لكن إذا تساءلنا عن معنى الفلسفة عند (بوبر) نجد أنها تجيء على شكل تفنيدات Refutations، ذلك هو الأسلوب الذي يميزه عن غيره من المعاصرين فالفلسفة ليست عبارة عن حلول للألغاز لغوية كما يزعم الوضعين ولا علاج نفسي حسب إدعاءات (فتجنشتاين Fittgenstein) (1889-1951)، وبالتالي نقد الوضعية المنطقية، التي ترى أن كل ماعدا العلم، لغو، في قوله: "فالوضعيون في شوقهم لإبطال الميتافيزيقا يبطلون العلم مع الميتافيزيقا أيضا، ذلك لأن القوانين العلمية لا يمكن ردها منطقيا إلى قضايا الخبرة الأولية".[2]

إنه من خلال نقد (بوبر) للابستمولوجيا التقليدية أو نقده للوضعية المنطقية التي تدعو إلى الاتساق والتقرير اللغوي للواقع، يغيب اليقين وفق هذا النقد وبالتالي يكون هدف العلم ليس اكتساب اليقين فالعلم" هو بكل تأكيد البحث عن الحقيقة، البحث عن نظريات صادقة رغم قناعتنا أن لن نتمكن أبدا من التأكد ولو عرفناه ا أنها صادقة أو صحيحة كما قال دزينوفانDzino Fan، لكن العلم ليس محتوى في الحقائق التافهة أن ما نطلع إليه، من وراء العلم هو الإجابة عن مشاكلنا"[3].

إذن المعرفة العلمية للعالم لا تتعلق باليقين أو الاعتقاد Croyance ببلوغ اليقين بل البحث عن المشاكل لإيجاد حل لها ثم نقد لهذا الحل، وهذه الكيفية يستطيع بها العالم أن يعالج بها أفكاره بل باستطاعة كل ابستمولوجي إتباعها للمقاربة الموضوعية التي تنبع من النقد الممكن للنظريات

---

[1]- محمد محمد عويضة كامل: كارل بوبر فيلسوف العقلانية النقدية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1995، ص133.

[2]- المرجع نفسه، ص134.

[3]- لخضر مذبوح: فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، المرجع السابق، ص283.

المتضمنة في سياقيهما بعيد عن التمسك الدوغمائي بالمبادئ والنتائ ج التي تم التوصل إليها في مرحلة من مراحل تطور العلم والشيء الذي يميز العقلانية النقدية كشعار لابد أن يتحلى به كل باحث، عند (بوبر) وتجعله رائدا لها هو مقاربته الابستمولوجية للعلوم الاجتماعية سعيا لتوضيح الجانب العقلاني في هذه العلوم، أي توضيح الحل الممكن لمشكلة المنهج بعد أن "كانت العلوم الطبيعية الحديثة، قد وجدت في غاليلو وباستور روادا لها، والعلوم الاجتماعية التي لم تعثر بعد على غليلها".[1]

بالرغم من أنه اعتبر بعض العلوم الإنسانية زائفة أي ما يعكس تمييزه بين العلم واللاعلم وفق منهج البحث النقدي La Méthode De La Recherche Critique، عنده والذي يعتبر معيار التكذيب كخطوة مهمة من خطوات هذا المنهج فالعلوم التي لا تخضع لمثل هذا المعيار فهي علوم زائفة Pseudosciences يقول: "لقد كان ما يروقني هو مجرد الشعور بأن الفيزياء النظرية، أكثر دقة من الصنف الاجتماعي أو النفسي".[2]

ما توصل إليه (بوبر)، من خلال (معيار القابلية للتكذيب)، والذي سوف نعمل على شرحه في المبحث الثالث، من هذا الفصل أن هناك نظريات قابلة للخضوع لهذا المعيار تميز نفسها عن نظريات زائفة، لأنها لا تخضع له، ليس فقط على العلوم الطبيعية بل حتى على العلوم الاجتماعية وهذا ما يعكس نوعا من التقرير بالوحدة المنهجية بين البحث في الطبيعة والبحث في المجتمع.

بالتالي الدرس الفلسفي الابستمولوجي عند (بوبر) لا يطرح إشكالية المنهج في علاقة الذات العارفة بالطبيعة فحسب بل في علاقة الذات العارفة بالمجتمع مع العلم أن البنية المنطقية لعلم النفس كعلم إنساني، مثل نظرية التحليل النفسي الفرويدي، جعلته غير قابل للتكذيب توصل إليها (بوبر) عندما تساءل "ما بال هذه النظرية" ولماذا تبدو مختلفة، عن النظريات الفيزيائية عن

[1]- بوبر كارل: عقم المذهب التاريخي، المصدر السابق، ص27.

[2]- مصطفى عادل: كارل بوبر مائة عام من التنوير ونظرة العقل، دارالنهضة العربية، د (ط.س)، ص21.

نظرية نيوتن، وبخاصة عن النظرية النسبية؟" [1]، الواقع ما ورد أعلاه هو اهتمام (بوبر) بمعطيات العلوم الإنسانية وحيثياتها نتساءل، هل استطاع بوبر الكشف عن الجانب العملي لمنهجه النقدي؟.

[1]- المرجع نفسه، ص70.

المبحث الثالث:منهج البحث النقدي

لا يكاد الباحث المتأمل في التصنيفات ذات الطابع المنهجي عند (بوبر) حتى يقتنع القناعة الحدسية بأنها تدور حول مسألة محددة، ألا وهي نمو العلم وهذه الأخيرة لن نجد لها سبيلا إلا من خلال التمييز أو الفصل Démarcation بين ما يسمى علم وبين ما يسمى لا علم، وإن هذا التمييز لا مرتبط في حقيقة الأمر، بعملية البحث العلمي في وجهها العقلي أو التجريبي وفق شروطها الضرورية أو "قواعدها العامة من أجل الوصول إلى نتيجة معلومة" [1]، مع العلم أن كل سلوك معرفي الصادر عن الباحث توجهه، هذه القواعد بالضرورة والتي تشكل ما يسمى بالمنهج العلمي.

فإذا عدنا إلى (بوبر) انطلاقا من قوله: "يجب على العالم أن يضع فروضا أو أنساقا من النظريات ثم يجري عليها اختبارا في مواجهة الخبرة بالملاحظة أو التجربة" [2]لبدت لنا عملية البحث السابق ذكرها أكثر غموضا رغم وضوحها، بل ستشير فينا الكثير من الإشكاليات منها هل المنهج يسبق النظرية، أم النظرية تسبق المنهج؟ وهل منهج البحث النقدي عند (بوبر)، كاف لحل هذه الإشكالية؟.

ينطلق (ديكارت) من الحدس العقلي Intuition Rationnelle متصورا العلوم كمجموعة أنساق استنباطية Systèmes Déductivesجميعها تقوم على هذا الحدس بحيث تكون مقدمات هذه الأنساق واضحة ومتميزة، كما أنه أولى لقواعد المنهج أهمية كبرى حين وضع قاعدة التحليل والتركيب، قاعدة الوضوح والبداهة وقاعدة الإحصاء المناسبة للعلوم، لكن على العكس من ذلك، نجد (بوبر) يعتبر أن الحدوس مؤقتة وهذا ما جعل المنهج الاستنباطي عنده له معنى خاص يختلف

[1]– عبد الرحمن بدوي: مناهج البحث العلمي، النهضة العربية، القاهرة، 1963، ص05.

[2]– بوبر كارل: منطق الكشف العلمي، المصدر السابق، ص80.

مفهومه عن المفهوم الديكارتي له بحيث "يعتمد على التوصل إلى النتائج بطريق منطقي بحت" [1]، فما طبيعة الاستنباط عند (بوبر) ؟ وماهي قواعد المنهج عنده؟.

لقد وضع (بوبر) قوانين أساسية لنظرية الاستنباط، هي قانون انتقال الصدق loi De Transmission De Vérité وقانون انتقال الكذب Loi De Transmission DeFaussete"بحيث ننقل كل الاستدلالات ذات الصورة المنطقية، عين الصدق وفق هذه القوانين إذا فقط لم يوجد مثال مضاد المتمثل في الاستدلال نفسه بمقدمات صادقة، ونتيجة كاذبة:

كل الناس فانون

سقراط فان

سقراط إنسان

فإذا استخدمنا في هذا الشكل المثال المضاد كافتراضنا (سقراط) اسم لحيوان، فالاستدلال سيصبح فاسدا، لأن المقدمات تعد صادقة أم النتيجة تعد كاذبة".[2]

أما عن قواعد المنهج عند (بوبر) نختصرها فيما يلي:

1- **لا نهائية البحث العلمي** "وبالتالي فإن الذي يقرر في يوم ما أن القضايا العلمية لا تدعو لأي اختبار آخر أو إضافي وإنه يمكن إليها على أنها تحققت بصورة نهائية فهذا مستبعد".[3]

2- **الثقة غير المؤكدة في الفروض التي ثبت صحتها** "فإذا اقترح فرض واختبر، وأثبت جدارته، فلا ينبغي طرحه من دون تقييم"[4]

---

[1]- محمد محمد قاسم : كارل بوبر نظرية المعرف ة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، د.ط، 1995، ص149.

[2]- المرجع نفسه، ص50.

[3]- بوبر كار: منطق الكشف العلمي، المصدر السابق، ص91.

[4]- المصدر نفسه، ص99.

3– **عدم قبول مبدأ العلية ، لكونه ميتافيزيقيا**"إذا فإنني لن أقبل أو أرفض مبدأ العلية، وإنما ببساطة أقتنع باستبعاده كمبدأ ميتافيزيقي".

4– **النظريات العلمية**، قابلة للاختبار لا لتحقيق ولا للتبرير لكن للتكذيب، كمعيار لموضوعيتها "إننا نجد النظريات العلمية ليست أبدا مما يقبل التبرير أو التحقيق تماما وإنما هي مما يقبل الاختبار".

ولشرح خطوات المنهج البوبري، نعتمد على الشكل الآتي:

م1----------حح----------أأ----------م2

بحيث تمثل لنا (م1) المشكل و(حح) حل غير نهائي مؤقت، و(أأ) استنباط قضايا أساسية من النظرية الجديدة، و(م2) مشكلة أخرى.....

يقف (بوبر) وقفة (داروينية)، لكن ليس بالمعنى المطلق للكلمة فمن جهة الإنسان يعيش نوعا من المشاكل تعكس نشاطه الخاص شأنه شأن أي كائن وهذه المشاكل في حياة الناس أو الكائنات الحية تتعلق بالبقاء، يقول (بوبر): "إن الحيوانات وحتى النباتات بإمكانهم حل المشاكل"[1]، ويضيف "لا توجد كائنات حية، من دون مشاكل، ومن دون حلول اجتهادية لهذه المشاكل".[2]

أما من جهة ثانية المشكل هو أول خطوة ينطلق منها الباحث لإيجاد حلول، لكن حلول مؤقتة ليست عشوائية خارجة عن إطار ما هو منطقي أي الحل المؤقت هو حل غير نهائي يتفق والنشاط الذهني للإنسان عكس الحيوان والمتمثل في النظرية الجديدة، بالتالي (داروين) يفسر التطور ببقاء الأصلح في الكائنات، وأما (بوبر) يفسره ببقاء الأصلح من الفروض أو النظريات.

بما أن النظريات العلمية قابلة للاختبار لا للتحقق أو التبرير لكن للتكذيب، يمكن استنباط منها قضايا أساسية مكذبة لها "إننا نقول أن النظرية تكون مكذبة فقط، إذا كنا قد قبلنا قضايا

[1]- Popper Karl: la connaissancez objective, ed complexe, 1978, p159.

[2]- Ibid, p161.

أساسية تناقضها"[1]، ومن هنا يبدو أن اختبار النظريات يكون استنباطا من الناحية النقدية، وهذا هو العنوان السلبي للعلم عند (بوبر) في قوله: "إن عنوان، الذي يميز العلم، هو أنه يتسم بإشباعه للمطالب السلبي مثل قابلية الرفض".[2]

يذكر (محمد محمد قاسم) أن بوبر قد حدد منهج اختبار النظرية في أربع مراحل:

1- أن نقيم مقارنة منطقية بين النتائج النظرية، حيث تعتبر هذه المقارنة عن مدى الاتساق الداخلي للنظريةCohérence intérieur de la théorie.

2- البحث عن المشكل المنطقي للنظرية، لمعرفة أهي علمية أم تحصيل حاصل Tautologie.

3- مقارنة النظرية بالنظريات الأخرى بغرض معرفة ما إذا كانت تصنيف علما جديدا

4- ونهاية المطاف تتمثل في اختبار النظرة اعتمادا على التطبيق التجريبي للنتائج المشتقة منها".

يضع (بوبر) معايير للنظرية العلمية أو لأي نسق نظري أهمها (القابلية للتكذيب) بحيث "يميز (بوبر) بوضوح بين القابلية للتكذيب Falsifiable كمعيار يشير إلى الخاصية التجريدية لنسق من القضايا العلمية أو لقضية واحدة، بينما يشير التكذيب Falsification إلى القواعد الخاصة التي يجب اتخاذها لتعين شروط تكذيب هذا النسق"[3].

إذ يرتبط معيار القابلية للتكذيب بنمو العلم نحو نظريات تخبرنا عن العالم والنظريات نفسها تكون أكثر قدرة على التقدم نحو أعلى درجة من الصدق إلا إذا كانت تحتوي في ثناياها آثار التكذيب أي إذا كان محتواها المعرفي Contenu Informatif واسع ودرجة الاحتمال Probabilité أقل، وهذا نقد موجه للاستقرائيين الذين يطلبون نظريات ذات درجة عالية من

[1]- بوبر كار: منطق الكشف العلمي، المصدر نفسه، ص125.

[2]- المصدر نفسه، ص77.

[3]- محمد محمد قاسم: في الفكر الفلسفي المعاصر، رؤية علمية، دار نهضة العربية، بيروت، د(ط، س)، ص300.

الاحتمال يقول: "إن القضايا والنظريات التي تخبرنا بأشياء أكثر عن العالم هي تلك التي تحرم أو تستبعد أكثر"[1].

مثال: نفترض (ق) قضية تقول" غدا سوف أسافر إلى وهران"

و(ع) قضية تقول "غدا سوف أشتري قميصا من وهران"

تركيب القضيتين (ق، ع) "غدا سوف أسافر إلى وهران وأشتري قميصا".

فالمحتوى المعرفي لـ(ق، ع) واسع وأقل احتمال من (ق) لوحدها أو (ع) لوحدها وهذا يعني عند (بوبر) نمو المعرفة مشروط بصياغة نظريات ذات محتوى واسع وذات درجة قليلة من الاحتمال، وإذا أردنا أن نحول القضية السابقة (سوف أسافر) قابلة للتكذيب اتبعنا الخطوات الآتية:[2]

1- سوف أسافر في وقت ما، من العام القادم.

2- سوف أسافر إلى وهران في وقت ما في العام القادم.

3- سوف أسافر إلى وهران غدا.

القضية الأولى البرهنة على كذبها غير ممكن، وبعد أن أضفنا المكان (وهران)، قد دنونا من قابلية التكذيب، على افتراض وجود أماكن أخرى لن نسافر إليها، من العام القادم، وأما القضية الثالثة، ضيقنا النطاق وأصبح لدينا (مكان) معين و(زمان) معين، وهذا ما يزيد من المحتوى التجريبي Contenu Empirique، مع نقصان درجة الاحتمال المنطقية بالإضافة إلى المحتوى المعرفي للنظرية الذي تكلم (بوبر) عليه يتكلم (بوبر) كذلك عن المحتوى التجريبي والمحتوى المنطقي Contenu Logique فأما المحتوى التجريبي يشير إلى مجموعة القضايا التي تعارض النظرية والمعارضة هنا ليست قائمة بالفعل وإنما محتملة وإلا أصبح كل ما ينادي به (بوبر) لغو، فكيف تحتوي النظرية وهي قائمة على عناصر في داخلها لا تتسق مع منطوقها؟ "إنما يقصده (بوبر)

[1]- المرجع نفسه، ص301.

[2]- محمد محمد قاسم: كارل بوبر، نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، المرجع السابق، ص164.

بالمحتوى التجريبي للنظرية هي فئة المكذبات المحتملة لهما)....(فالنظرية التي تخبرنا بالكثير عن الوقائع المشاهدة هي التي تمنع الكثير أيضا من الوقائع وتحرم حدوثه)... (بحيث إذا صدقت واحدة من هذه الوقائع تم تكذيب النظرية على الفور".[1]

أما المحتوى المنطقي "هو عبارة عن فئة نتائج من غير تحصيل حاصل التي يمكن أن نستنتج أو أن نشتق من القضية أو النظرية" [2]؟، ولا خلاف هنا بين المحتوى التجريبي والمنطقي إذ هما يتزايدان أو يتناقصان بنفس النسبة وهذا يوضح أن الفكرتين متشابهتين ويعبر (بوبر) عن هذا التشابه في دور كل منهما بالقول: "إن الصيغة (1) ترتبط بالصيغة (2) فيما يلي:

1- م ت (ن1)> م ت (ن2)

2- م م (ن1) < م م (ن2)

حيث تشير م ت إلى لمحتوى التجريبي وتشير م م إلى المحتوى المنطقي وتشير ن 1، ن2، إلى نظريتين تجريبيتين"[3].

لم يكتف (بوبر) بتقديم وصف مسالك العلماء ولا بتاريخ تطور النظريات العلمية، وإنما طبق معيار المقترح التمييز بين ما هو علمي وماهو غير علمي، بحيث وجد أن (نظرية أينشتاين) كنموذج لنظرية علمية، فإذا ما استرجعنا ما كتبناه في هذا المبحث لأدركنا الأسباب التي جعلت (بوبر) يرى في نظرية (أينشتين)، نموذج علمي:

1- إنها نظرية في غاية الجسارة Audaceفهي في خطها الأساسي بمثابة انحراف كبير عن نظرية (نيوتن) التي كانت تحرز قدر من النجاح في ذلك الوقت.

---

[1]-محمد محمد قاسم: في الفكر الفلسفي المعاصر، المرجع السابق، ص294، ص295.

[2]- المرجع نفسه، ص295.

[3]- المرجع نفسه، ص295.

2- استنتج (أنشتين) ثلاثة تنبؤات ذات نتائج قابلة للملاحظة)...(وتناقض لنتائج الثلاثة لـ (نيوتن) وهذا بلا شك تطبيق سليم، ما رآه (بوبر) حول دور المحتوى التجريبي للنظرية كلما أكدت النظرية نجاحها"[1].

بعد أن لمحنا عن الجانب البنائي لمنهج العلم عند (بوبر) في شكله المختصر نشير إلى موقفه النقدي من المنهج الاستقرائي والذي يعد في نظره "خرافة" [2]، وبالتالي تخطئ لكل من يرى أن الاستقراء مشكلة إذ يتفق (بوبر) مع (هيوم Hume) في التشكيك بأمر الاعتقاد Croyance أي التشكيك في الاستقراء بمعنى الذي يصاغ به الاعتقاد عن طريق التكرار Répitition أو العادةHabitudeعندما طرح السؤال هل يمكن استنتاج حالات أو نتائج متكررة قامت على الخبرة؟ وتأتي إجابة (هيوم) عن هذا السؤال بالنفي بحيث يؤيده (بوبر) في هذا.

يرى (بوبر) أن الناس والحيوانات لديهم حاجة ماسة للاطراد لكنه ليس حقيقة منطقية أي ليس مبدأ منطقي خالص ومحاولة الناس من الناحية النفسية فرض الاطراد على الواقع هي محاولة تقوم على الدوافع والغرائز إذ هم بحاجة إلى عالم يطابق توقعاتهم وعلى ذلك انتهى (بوبر): "إلى أنه لا مجال لنشأة اعتقاد ولا مجال لدور يلعبه التكرار" [3]، فقد تنشأ التوقعات دون تكرارات وقد تكون قبل التكرار إن وجد، كما هو واضح في تاريخ العلم. وهذا بالطبع نقد لنظرية (هيوم) الاستقرائية في صياغة الاعتقادات بناء على التكرار وبالتالي نقد للفلسفة الخاطئة التي يسميها (بوبر) بالمذهب الاستقرائي Inductivisme، فإمكانية الحصول على معرفة علمية تجريبية عند (بوبر) دون استخدام خطوات استقرائية حيث يمكننا اختبار النظريات العلمية المتناقضة دون الاستعانة بالاستقراء، لكن أليس هذا استعانة بمنهج الرفض والاستبعاد عند (بيكون) وطريقة التحقق من الفروض لدى (مل)؟إن الاستغناء بهذه الطريقة الاختبار، التكذيب باستخدام الواقع

[1]- المرجع نفسه، ص223-224.

[2]- بوبر كارل: الحياة بأسرها حلول لمشاكل، المصدر السابق، ص29.

[3]- المصدر نفسه، ص32.

أو الاتساق الداخلي هو ما يسمى بالمشكلة المنطقية للاستقراء، فما يمكن قوله أن المنهج البوبري يقع في صميم رؤية جديدة لعلم المناهج، لكن إذا كان هو نفسه يؤكد على النقد؟ ألا يكون منهجه بحاجة إلى نقد؟.

ليست الفلسفة شيئا أكثر من النقد، فهي النقد بامتياز وهذا بالفعل ما أقره تاريخ الفلسفة أنه لا يوجد رأي سديد محكم لم يجد له الفيلسوف من ينقده، وينال من وجهاته والعلم المعاصر وما نتج عنه من تجدد في نظرياته ونسبة في حقائقه يفضي إلى الاعتراف بتنوع في المفاهيم والمعايير وبالتالي إلى الاعتراف بالتنوع في المناهج وأساليب البحث، تجعلنا نتمعن في الانتقادات الموجهة إلى (بوبر) الذي هو نفسه أقر بأنه "لاوجود لأفضل من العقلانية كالنقدية"[1].

بحيث هذا التمعن يجعلنا نكشف بل يجعلنا نتساءل عن نقاط الضعف في منهج (بوبر)، وهل (بوبر) صرح بوجودها؟ أم أنه أخفى ذلك لصالح خلفيات إيديولوجية جعلته يدافع عن منهجه؟ وفي آخر المطاف الكشف عن حدود المنهج البوبري؟

[1]- بوبر كارل: منطق الكشف العلمي، المصدر السباق، ص93.

بالنسبة لمن ناقش (بوبر) بشكل مباشر أو غير مباشر بصدد منهجه ومعاييره وما هو التصور الأفضل للنظريات العلمية، فهم كثر علماء وفلاسفة علم وباحثون من اختصاصات متعددة إلا أننا سوف نختصر الطريق بأخذ مآخذ وانتقادات (فيرابند Fyrabend) (1924-1994) لـ (بوبر).

نلتمس معالم النقد عند (فيرابند) الذي يحتل مكانة مركزية في فلسفته العلمية إلى درجة تتيح لنا القول أنه ينتقد كافة المشروعات المتوفرة في فلسفة العلم عامة والمتودولوجيا على وجه الخصوص، يقول:إن فكرة المنهج الذي ينطوي على مبادئ ثابتة مطلقة لا يعتريها تغير لإنجاز مهام العلم، لتواجه صعوبات جمة حين مواجهتها بنتائج البحث التاريخي حيث أنه لا تتوفر قاعدة واحدة مهما كان قدر المعقولية الذي تتمتع به"[1].

الطرح الفيرابندي وفق فكرة " ضد المنهج"Contre La Méthodeيجعل العلم غريبا عن العقلانية التي يحمل شعارها الغرب، وبل بالعكس من ذلك نظرته حول العلم، تعد واحدة من أكثر وجهات النظر جرأة واستفزازا خصوصا، إذا تعلق الأمر بالبعد الابستمولوجي لمفهوم الفوضى إلى جانب مفاهيمه الأخرى، كالتكاثر والتحول المفاهيمي الجذري، والاستقراء المعاكس ولعل هذا القول يكون أكثر مبرر لهذه النظرة فأينما وجهنا ناظرينا نجد أن مبادئ العقلانية النقدية)... (تعطينا رؤية زائفة عن تطورات الماضية، في العلم ولا يرجى منها سوى إعاقة العلم).... (فالعلم أكثر فوضى، ولا عقلانية بكثير من صورته المنهجية، ولا يرجى منها سوى إعاقته".[2]

إن تناول (فيرابند) لبوبر عامة كرؤية نقدية أو تناولنا نحن للفلسفة العلمية عند (فيربند) بأكملها يحتاج إلى مساحة واسعة فقط نريد تقييم المنهج التكذيبي عند (بوبر) من خلال هذه

[1]- عادل عوض: الابستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط 1، 2003، ص71- ص72.

[2]- المرجع نفسه، ص105.

الرؤية التي تقول: "إن الكثير من النظريات العلمية لا تقبل التكذيب بالطريقة التي يصفها بوبر"[1]، إذن كيف يمكن أن تكون النظرة النقدية، عند (فيرابند) في وجهها العام بالنسبة للمناهج، وفي وجهها الخاص بالنسبة لـ(بوبر) مقياسا للعلم، وفلسفته؟ ألا تكون نظرته إطاحة بالمجهودات المثمرة التي حققتها العقلانية النقدية البوبرية في ضوء معيار القابلية للتكذيب كسبيل للتطور العلم؟

يتناول (بوبر) الفصل بين النظريات تناولا منطقيا بل بالعكس من ذلك يجعل المنطق سلطة على كل العلوم بحيث يؤكد بأن العلماء لمجرد تعارض نظرياتهم العلمية، مع الواقع يتخلون عنها إلا أن "فيرا بند" ينفي هذا التخلي كدور حاسم في مجال العلم".[2]

إذ يدعونا إلى النظريات وتطويرها التي لا تتسق مع الواقع والخبرة والتي كفت عن أداء أدوارها، أو النظريات المكذبة فالمنهج الصائب يجب أن لا ينطوي على أية قواعد تجعلنا نختار بين النظريات على أساس من التكذيب، بل قواعده يجب أن تحتوي على ما يمكننا من اختيار بين النظريات التي تم اختبارها وتكذيبها، ثم "إن النظرية تطوق بعدد كبير من النظريات المساعدة القديمة" أو التي يدعونا بوبر إلى التخلي عنها)... (بينما بعد فترة من خلال النظريات المساعدة يبدو أنها ليست كذلك، حيث ينتهي (فيرابند) من نقده لـ(بوبر) من أن قواعده المنهجية لا تسهم في نمو المعرفة وإنما في واقع الأمر تعوقه وهذه القواعد باختصار لا فائدة لها بالنسبة للعلم".[3]

إن (فيرابند) بذلك هو بصدد مواجهة القواعد المنهجية الأساسية وأكثرها عقلانية وانسجاما مع الفلسفة الرسمية للمذهب الفوضوي الذي يقوض دور العقل في نمو العلم، فالذي

---

[1]- فيرابند بول: ثلاث محاورات في المعرفة، تر محمد أحمد السيد، منشأ المعارف الإسكندرية، د.ط، 1997، ص19.

[2]- عادل عوض: المرجع السابق، ص88.

[3]- المرجع نفسه، ص89.

يبدو لنا فوضى أو بوصفه انتهازية عند مقارنته مع تلك القواعد له أهمية عظمى في تطور تلك النظريات الأصيلة التي تعد اليوم جوهر معرفتنا عن الطبيعة كالنظرية الكوبرنيكية التي يستخدمها (فيرابند) لتوجيه نقد عنيف للمتودولوجيا، حدوس وتفنيدات، "فالانتقال من فلك ما قبل (كوبرنيك)، إلى فلك القرن 17، كان بمثابة انتقال من نظريات مفندة إلى حدوس أكثر خطأ من العمومية، تفسير الوقائع المفندة لسالفتها، وتقدم تنبؤات جديدة ومتسقة مع الملاحظات المجراة لاختبارها".[1]

إذا كان من طبيعة الفلسفة التساؤل، فمن طبيعة الفلسفة انتقاد ما وصلنا إليه من إجابة أثناء التساؤل وبالتالي من طبيعة الفلسفة أنها تدعو إلى الاختلاف وتعدد الآراء وفق طبيعة النقد، ولعل الفوضوية في بعدها الابستمولوجي عند (فيرابند) هي تقرير منافي لوحدة المنهج، ووحدة العلم، بل تقرير التعددية المنهجية أي إلغاء لكل نتيجة ثابتة هذا ما يجعلنا نتساءل ألا تكون اللحظة، التي نقد فيها (فيرابند) العقل هي اللحظة التي استخدم فيها هو نفسه العقل؟ وألا يكون التعدد المنهجي ليس شيء أكثر من البحث عن الثبات النابع بل والذي تفرضه الطبيعة العاقلة في الإنسان؟.

[1]- المرجع نفسه، ص89.

الفصل الثالث

موقف بوبر من علمية التاريخ

المبحث الأول: عقم المذهب التاريخي

المبحث الثاني: نقد التاريخانية

المبحث الثالث: معيار التكذيب وعلم التاريخ

المبحث الأول: عقم المذهب التاريخي

نجد (كارل بوبر) صاحب العقلانية النقدية يطيح بمزاعم التاريخانية Historicisme، وهذه الإطاحة لم تكن عشوائية وإنما كانت نابعة من روح النقد التي كان يتحلى بها، فحسب ما تقتضيه النظريات العلمية على أنها ليست صحيحة، والحقيقة المطلقة أو الحقيقة الموضوعية "هي المقياس، أو المعيار الذي يُمكن أن نخطئ فيه" [1] جعلته ينقد الاتجاه الداعي إلى التزاوج ومناهج العلم الطبيعي.

لم يسلم حتى الاتجاه المناهض له من النقد، أي الاتجاه الذي يرى فرقا شاسعا بين العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية، بحيث يمكن الوصول إلى قانون التطور وتحقيق الموضوعية في دراسة التاريخ بواسطة منهج النقد التاريخي فالاتجاهان يصُبان في منبع واحد في رأيه، وهو بناء قوانين تُحدد مصير التاريخ Destin de L'histoire ومنه يُمكن التنبؤ بمستقبل الإنسانية، هذا ما يجعلنا نتساءل عن ما هي الانتقادات التي وجهها (بوبر) والتي تبرر بعقم المذهب التاريخي InféconditéD'historicisme وكذبه؟.

لقد اخذ مفهوم المذهب التاريخي معاني متعددة قد تختلف فيما بينها إلى حد التناقض*، لكن إذا ما تذكرنا أسلوب(كارل بوبر) المنطقي في التميز بين العلم واللاعلم بل بجعل المنطق سلطة على كل العلوم فانه على وعي بما يعنيه بكلمة مذهب تاريخي وتحليلاته لا تبتعد عن أسلوبه وفقا لهذا التعريف، يقول في هذا الشأن: "أعني بالمذهب التاريخي طريقة في معالجة العلوم الاجتماعية تفترض التنبؤ التاريخي هو غايتها الرئيسية وتفترض أن هذه الغاية، يُمكن الوصول إليها

---

[1]– لخضر مذبوح: فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، المرجع السابق، ص285.

*– كلمة Historicisme كانت توصف كطريقة فلسفية معينة في معالجة التاريخ، نشأت في ألمانيا وهي تفترض أن جميع الأحداث التاريخية هي وقائع فذة غير قابلة للتكرار لذلك أكد التاريخانيون أن محاولة تصوير الواقع بحقبة تاريخية معينة مخلة وخطيرة فبدل من ذلك ينبغي العمل على التأويل، مصطفى عادل: كارل بوبر مائة عام من التنوير، المرجع السابق، ص176.

بالكشف عن القوانين، أو الاتجاهات، أوالأنماط أو الإيقاعات التي يسير التطور التاريخي وفقا لها"[1].

يبدو أن (بوبر) من خلال التعريف الذي قدمه للمذهب التاريخي، يعكس رأيه في فلسفة العلم الطبيعي وهو الوقوف على إشكالية التنبؤ، فتطور العلم أو نمو المعرفة مرهون بنقد تنبؤاتنا وهو الشيء الذي لا يمكن أن نتحدث عنه بالنسبة للعلوم الاجتماعية، لأن طبيعة العلمين تفرض الاختلاف بينهما كما تفرض الاختلاف بين الاعتقاد والتنبؤ، إذ يحدد (بوبر) أمثلة الاعتقادات التاريخية التي تتنبأ بها العلوم الاجتماعيةفي:"

-اعتقاد يهود العهد القديم في رسالة الشعب المختار.

- اعتقاد المسيحيين الأوائل في حتمية اهتداء المجموع البشري متبوعا بـ "المجيئ الثاني".

- اعتقاد التحرريين في عصر التنوير بحتمية التقدم*البشريProgrèshumain"[2].

إن بوبر كمُنظّر للعقلانية النقدية هو على وعي بقُدرة الإنسان على تقرير مصيره بنفسه وحل مشكلاته بدون تدخل من أعلى ولهذا السبب ينتقد أمثلة الاعتقادات التاريخية التي تبقى مجرد إخراج لحتمية لاهوتية، إذ هو لا يستطيع قبول "تأليهية التاريخ" Apothéose de L'histoire، فللعلوم الاجتماعية التي تفترض التنبؤ من أجل الكشف عن أهم العلاقات والقوانين التي من خلالها نستطيع التعرف على الارتقاء التاريخي للمجتمعات، لا تزال معلقة بالاعتقادات التي فرضها التفسير اللاهوتي والمتعلقة أكثر بفكرة العناية الإلهية Providencedivinité**

---

[1]- بوبر كارل: عقم المذهب التاريخي، المصدر السابق، ص13.

*- تغير تدريجي إلى الأفضل تقدم إلى مالا نهاية- progrés a l'infini، مراد وهبة، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص59.

[2]- مصطفى عادل: المرجع نفسه، ص177.

**- عامة general وهي رسم برنامج للعالم وتعيين غاية له بإجمال، خاصة particuliére وهي اهتمام الله بالأفراد كل فرد على حدة، مراد وهبة المرجع نفسه، ص150.

كالاعتقاد اليهودي الذي ابتدع أسطورة إرادة الله والتاريخ كشف على هذه الإرادة التي تُحقق ما وُعد به شعب اليهود المختار، أي فيما يخص أرض المعاد "أرض فلسطين".

لا يتوقف نقد (بوبر) لتفسير التاريخ تفسيرا ميتافيزقيا والذي يُرجع مصير التاريخ إلى قوى الغيبيةPouvoirs Métaphysique فحسب بل حتى عصر الأنوار الأوربي، الذي نادى بحتمية التقدم البشري بالرغم "أن عصر الأنوار هو عصر تراجع الفكر الكنسي، وبروز الإصلاح Réforme"[1].

استطاع من خلاله مؤرخو التنوير صناعة عقيدة جديدة في تفسير التاريخ، تستند إلى التقدم وانتصار العقل كهدف أعلى له فالإنسان على مر العصور وما تعاقب فيها عليه استقرار واضطراب، يسير إلى الأمام على درب التقدم نحو كمال متزايد ولو بإيقاع بطيء، باتجاه هدف روحي وإنما باتجاه كمال الإنسان على الأرض"[2]، بالرغم من أن الأنوار في نظر البعض يُعد كأكبر مشروع عقلاني ديمقراطي يحول المجتمع عن طريق العقل إلا أن (بوبر) كرائد للعقلانية النقدية لا يقف ضد العقل بل من بين المبررين لفاعليته وقدراته النقدية، أي بمعنى أن (بوبر) هو ضد الادعاءات التي ترى في العقل قدرة على تمثل الكون والطبيعة، وكذا إمكانية صياغة نظريات حتمية لحركة التاريخ الاجتماعي والتنبؤ بمصير البشرية، إنها نظرية زائفة لا أساس لها من الصحة.

بحسب المرء أن يُشرع في سرد بعض الأمثلة الشهيرة لكي يُدرك أن مثل هذه التنبؤات قلما تتحقق وبصرف النظر عن أي نظرية محددة فإن التصور العام بوجود مصير تاريخي محتم أو على الأقل خُطة أو معنى أو نمط مترابط، هو تصور يُحظى بانتشار واسع، فإذا شاء المرء أن يكشف عن الحتمية التاريخية فلا مناص له من أحد التفسيرات الثلاثة الآتية: "إما أن التاريخ يسيره عقل

[1]- محمد سيف حيدر النقيد: نظرية نهاية التاريخ، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط 1، 2007، ص32.

[2]- المرجع نفسه، ص33.

خارجي ما وفقا لمشيئته الخاصة أو أن ليس في الأمر روح على الإطلاق وفي هذه الحالة تكون هناك عمليات ماديةMatérialisme* ، حتمية يسير التاريخ وفقها"[1].

لا جرم بأن (بوبر) يرفض التفسيرات الثلاثة بل هذا الرفض يتبعه النقد حين قال: "ومن ذلك الحين وفقت إلى تنفيذ المذهب التاريخي، إذ بينت أنه يستحيل علينا التنبؤ بمستقبل سير التاريخ"[2]، فالخياران الأولان من الجلي أنهما متافيز يقيان ومن ثم فهما غير قابلين للتكذيب وغير علمين بكل تأكيد وأم الخيار الثالث فيركز على تصور للعلم عفا عليه الزمن، وإذا أردنا أن نقترب كثيرا من رفض (بوبر) للمذهب التاريخي وإدعاءاته لابد أن نشير بأن (بوبر) نفسه يُؤكد على اللاحتميةIndéterminisme*، ويرى أن التغير إنما يُنتج عن محاولاتنا نحن بحل المشاكل، هذا من جهة.

أما من جهة ثانية يجدر بنا الإشارة إلى فكرة العوالم الثلاث Trois Modes لتحقيق المقاربة بين ما يسمى معرفة موضوعية Connaissance Objective وبين ما يسمى نقدا للمذهب التاريخي، فما علاقة المعرفة الموضوعية إذن بهذا النقد؟.

يُميز (بوبر) في حقيقة الأمر بين عوالم متبادلة التأثير والاعتماد:

-العالم 01: العالم الفيزيقي.

-العالم 02: العالم العقلي الذاتي.

- العالم 3: هو العالم الموضوعي للنظريات..."[3]

---

*- في الميتافيزيقا القول بان المادة جوهر ومبدأ الأول، قد وجد في الفلسفة اليونانية والمادية التاريخية materialism Historique يقرر ماركس أن نمو الحياة الإنسانية يتوقف كله على الظروف المادية والاقتصادية وان نوع الإنتاج في الحياة المادية شرط تطور المجتمع مراد وهبة المرجع نفسه، ص-ص، 208-209.

[1]- بوبر كارل، عقم المذهب التاريخي، المصدر السابق، ص07.

[2]- المصدر نفسه، ص07.

*- أدى تطور البحث في مجال الذرة إلى اكتشافات جديدة اثبت أن نشاطها يتضمن حوادث مجهولة مما أدى إلى الاعتقاد في مبدأ اللاحتمية.

[3]-Popper karl : la connaissance objective, op, cit, p109.

توجد علاقة منطقية موضوعية بين هذه العوالم، بمعنى أنها مستقلة عن وعي العقول الفردية ودرايتها إذ تنشأ موضوعات العالم 3 بواسطة عقول العالم 2، استجابة لمشكلات مدركة في العالم1، غير أنها تتم صياغتها حتى يُصبح لها وضع موضوعي يتجاوز نوايا الفرد مع ذلك قد ركزت الفلسفة التقليدية على المعرفة بمعناها الذاتي، والذاتية Subjectivité: "هي كل نزعة تهدف إلى إعطاء الذات أولوية على الموضوع، ولها معنيان الأول يقتصر على المعرفة والثاني يعتبر ا لذات جوهرا ميتافيزيقيا أشمل من مجرد الوظيفة المعرفية La Fonction Cognitive"[1].

هذا الإرصان النظري لميتافيزيقيا الذات تم تأسيسه بأسلوب اليقين والب داهة عند(ديكارت)أي أن (ديكارت)أثبت آنية الإنسان كجوهر مفكر هو ما أضاف إليه (ايمانويل كانط) بُعدا آخر هو الإرادة باعتبار الكوجيتو الديكارتي أنا أفكر Je Pense يحتوي كذلك على ما يُمكنني أن أعرف؟ إلى جانب ماذا ينبغي علي أن أعمل؟ (فكانط) يرى الهوية الذاتية للذات على أنها عملية وليست مجرد شيء مُعطى وليست حقيقة هامدة.

من هنا تتضح المقاربة الموضوعية بين المعرفة العلمية التي تتألف "بغير ذات عارفة" [2] ونقد المذهب التاريخي الذي يدعي التنبؤ بحركة التاريخ لأن واحد ك (كانط) عندما راح يحل المشكل الأخلاقيProblème D'ethique*، أي بمعنى مناقشة الأعمال الأخلاقية كمبادئ تنتهي لزاما بنتيجة وعند صياغته لقانـون: "تصرف كما لو أنك تستعمل الإنسانية بشخـصك أو شخـص غيرك دائما كنهايةFin**[3] وليس كوسيلة"[3].

---

[1]– ندهوتدرش: دليل أكسفورد للفلسفة، تنصيب ألحصادي، مكتب أبو ظبي لنشر والتوزيع، د(س، ط)، ص389.

[2]– Ibid, p105.

*– جملة القواعد غير مشروطة للسلوك الإنساني، مراد وهبة، المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص08 .

**– حسب التعريف المعجمي، غاية الشيء وأخذه وأقصى ما يمكن أن يبلغه، أحمد فيش: المعجم الفيصل، دار الحكمة للطباعة والنشر والتوزيع، د(ط) 1985، ص374.

[3] –علي محمودي: فلسفة كانط السياسية، تع: عبد الرحمن علوي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2007م، ص156.

جعل الذات تتطلع إلى مجتمع تسوده قيم السلام Valeurs De La Paix على أسس معقولة.

بالتالي فـ (كانط) وفق الذاتية التي يرفضها (بوبر) خصص دراسة فلسفية لتنظيم التاريخ العالمي L'histoire Universelle وتنبأ بحركته في قوله: "الطبية تفتح آفاق مستقبلية ممتعة، تكشف لنا كيف ستبلغ البشرية مرحلة) ... (يتحقق فيها مصير الإنسان وتقديره"[1].

إنه وفقا للمعرفة الموضوعية عند (بوبر) خصوصا إذا تعلق الأمر بمسألة العالم 3، الذي نحن بوصفنا جنسا صنعناه غير أن كلا منا يرثه ولا يملك أن يغير فيه إلا قليلا، ينقد المذهب التاريخي أي ينقد أنصار حتمية التقدم البشري، فالمحاولة لحل مشكلاتنا تتوقف على أشياء لا يُمكن التنبؤ بها منها: الاختيار، الصدفة، التطور، ونحن مسئولون من بين هذه الأشياء، عن اختيارنا.

[1]- المرجع نفسه، ص169، ص170.

المبحث الثاني: نقد التاريخانية

لقد لاحظ (بوبر) في كتابه بؤس التاريخانية[1]Misère De L'historicismeأن المنهج في العلوم الاجتماعية، بحاجة إلى أن يستند إلى فهم عميق للظاهرة الاجتماعية PhénomèneSocialeويُعد لتفسير بمصطلحات كيفية Qualité وليس بمصطلحات كمية Quantité فليس هناك أدنى شك اختلاف بينها، وبين مناهج العلوم الطبيعية.

كما بين (بوبر) من خلال كتابه في مقارنته بين العلم الطبيعي أثناء مسيرته وعلم الاجتماعي، أن الاهتمام بـ العلوم الطبيعية كان سابقا على الاهتمام بالعلوم الاجتماعية، إذ "أن مسيرة تقدم العلمين وتقويمها، يعود لهذا السبب"[2] .

لهذا فهو من جهة يؤيد بعض التاريخانيين الذين يرون بأن المناهج المشروعة الكاملة في الفيزياء لا يمكنها دائما وأبدا كحالة التعميم على سبيل المثال أن يستخدم في علم الاجتماع، لكنه من جهة ثانية يُلح أن هذا النضال التاريخاني يستند على سوء فهم فادح للمناهج التجريبية في الفيزياء، ويقف على رأسها أن التاريخانية هي منهج فقير عاجز عن تحقيق النتائج التي يُعيدها وهذا راجع لفقر التخيل، فالتاريخاني لا يبذل جهدا لاكتشاف إمكانية التغيير في شروط التغيير، التي يُلح على اعتبارها شروط ثابتة أزلية"[3].

يعترف (بوبر) بصعوبة اللجوء إلى المناهج الكمية، مناهج القياس على الخصوص في العلوم الاجتماعية لكنه يحاول التغلب على هذه الصعوبات ويبحث على منهج أكثر ملائمة وأكثر إنتاجا "لأن في كثير من المواقف الاجتماعية هناك عنصر المعقولية، يجعلها ملائمة لبناء نماذج تعمل كتقريبات مفيدة"[4].

---

[1]- popper Karl : Misére de l'historicisme, T, Horvepousseau, Edition, plan, Paris, 1991, p6.

[2]- لخضر مذبوح: فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، المرجع السابق، ص292.

[3]- Ibid, p129.

[4]- Ibid,p177, p178.

إن عنصر المعقولية هذا في الفعل الانساني يُخول للعلوم الاجتماعية اللجوء إلى منهج الصفر والذي يعني به (بوبر): "إمكانية تبني منهج البناء المنطقي أو العقلاني، أو الانطلاق من مسلمة بمعقولية كلية من قبل كل الأفراد المعنيين، وتقدير أو حساب أساس الانحراف العقلي لسلوك الناس، بالقياس إلى نموذج السلوك باستعمال هذا الأخير كنوع إحداثي Coordonnée صفر"[1].

لعل المحاولة البوبرية في التعرف على المنهج الأكثر ملائمة للعلوم الاجتماعية هو بالأحرى كشف الأهداف والأهلية لهذه العلوم فغرضها: "ليس كما يعتقد التاريخانيون التنبؤ بالمجرى المستقبلي للتاريخ، أنها بالأحرى اكتشاف وتفسير للتبعية الأقل وضوحا داخل الدائرة الاجتماعية"[2] ومفتاح نقد (بوبر) للتاريخانية يتموقع تحديده في ذكر الأسباب المنطقية... يُمكن حصر دليلها في هذه القضايا:"

- يتأثر التاريخ الإنساني في سيره، تأثرا قويا بنمو المعرفة الإنسانية.
- لا يمكن لنا بالطرق العقلية، أو العلمية، أن نتنبأ بكيفية نمو معارفنا.
- إذن فلا يمكن التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنساني.
- وهذا معناه أننا يجب أن نرفض إمكان قيام علم تاريخي نظري، أي مكان علم تاريخي اجتماعي، يقابل علم الطبيعة النظري، ولا يمكن أن تقوم نظرية علمية في التطور التاريخي، تصلح أن تكون أساسا للتنبؤ التاريخي.

-إذن يخطأ التاريخانيون، في تصور غاية أساسية التي يتوسلون إليها بمناهجهم"[3].

---

[1]- لخضر مذبوح:المرجع السابق، ص296.

[2]- المرجع نفسه، ص 294.

[3]- مصطفى عادل: كارل بوبر مائة عام من التنوير، المرجع السابق، ص179.

كل حادثة في التاريخ هي حادثة مفردة جديدة، فذة، ومتمايزة انطولوجيا Ontologie* عن أي حادثة أخرى لهذا فإن "بؤس التاريخانية هو بؤس التصور، حيث أن المؤرخين لا يملكون تصورا يمكنهم من التنبؤ بكل المتغيرات الممكنة"، والتساؤل عن التنبؤ بين التاريخ والعلم؟ هو التساؤل عن واقعة أننا نتنبأ بظواهر الكسوف والخسوف لا يقدم أي إجابة عن إمكانية التنبؤ بالثورات؟

لقد كُتب على البشرية أن تقطع الطريق وذهبت التاريخانية لتبحث عن هذا الطريق، إنه التاريخ المليء بالمتغيرات الاجتماعية حيث لا يجوز الشك في وجودها بل العمل على كشف قوانينها وأن نتنبأ بوجهتها في المستقبل.

لكن هذا التنبؤ يحيل إلى شيء آخر، إذ بمجرد أننا نريد التنبؤ بحركة التاريخ فإننا بذلك نريد أن نُضيف إليه معنى، أي نريد أن نجعل للتاريخ غاية تابعة لمواقفنا وتأويلاتنا "إذن ليس هناك علم للتاريخ، فالتاريخ ليس مجالا للعلم بل التأويل، ليست هناك نظريات تاريخية بل وجهات نظر لا يُمكن اختبارها، إذ هي لا تقبل التكذيب ومن ثم فكل الملاحظات التي يبدوا أنها تؤيدها لا قيمة لها ولو بلغت نجوم السماء عددا"[1].

وفق ما ورد سابقا يتضح أن نقد (بوبر) للتاريخانية هو نقد المعاني والتأويلات الصادرة عنها فهي خطأ ويفهمونها على أنها صحيحة، إنهم "يستطيعون وفقط تفسير وتأويل التطور التاريخي ويساعدهم بذلك طرق مختلفة ووجهات نظرهم، مع ذلك لأحد يستطيع تغييره"[2].

إننا جميعا نلفظ كلمة تاريخ ونتحدث عنه كما لو كان هو ذاته شيء لا يحتاج إلى تفسير وبالتالي لا يكون هناك تاريخ لماضي كما حدث بالفعل، بل سوى تأويلات تاريخية تجعل (بوبر)

---

*- هي نظرية الوجود بما هو موجود، وهي عند أرسطو الفلسفة الأولى أو علم ماهيات الأشياء، وأول من أدخل هذا المصطلح، إلى الفلسفة هو فولف وهي علم المبادئ الأساسية، أو نظرية المقولات.

[1]- مصطفى عادل، المرجع نفسه، ص192.

[2]- popper Karl : la misère de l'historicisme, op, cit, p55.

يُقر "بأنه ليس للتاريخ معنى، حيث اعتاد الناس الحديث عن التاريخ وتعلموا شيئا منه في المدارس ورأوا ما يعالجه في الكتب، تحت إسم تاريخ العالم أو تاريخ الجنس البشري) ... (لكن ليس هناك تاريخ للجنس البشري بل هناك عدد لا حصر له من التواريخ الجوانب المختلفة من الحياة البشرية"[1].

يرتبط نقد (بوبر) للتاريخانية مع فكرة المجتمع المفتوح وأعدائه The Open Society And ItsEnemies، لأن فلسفته الإبستمولوجية تعي دور الفحص النقدي الأكثر العقلانية للحياة العملية المتصلة بحل المشكلات، فلا شك أن "كتاب المجتمع المفتوح هو أكثر أهمية)...(يُعرف كمؤلف في الفلسفة السياسية) ...(وما أظهره من غنى في الحجة والمثال أن المنهج النقدي النموذجي للعلم يُمكن تطبيقه وتعميمه"[2].

يقدم (بوبر) لوحة ترسم علاقة التاريخانية بالسياسة الاجتماعية، أي في علاقة الفكر التاريخاني الهيغيلي والماركسي وآثاره على المجتمعات الحديثة والمعاصرة، خصوصا "علاقة بين الماركسية والديمقراطية الغربية، التي ترجمها فيما بعد الحرب الباردة، حرب المواقع وفرض الهيمنة على العالم"[3].

لقد كان (هيغل) هو مصدر كل تاريخانية معاصرة تعود إلى التقليد الجمعوي والقبلي "مجتمع لا تترك فيه المؤسسات أي مكان للمسؤولية الشخصية" أي المجتمع المغلوق الذي لا يستطيع أفراده مواجهة القرارات السياسية ، فعندما كان (هيغل) يؤسس للتاريخانية أي بصدد فهم المعطى التاريخي في وجهه المثالي Idéalisme، كان بصدد تقديم رسالة للأمة الجرمانية وغير ذالك

---

[1]– مصطفى عادل: المرجع السابق، ص194، 195.

[2]– لخضر مذبوح: فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، المرجع السابق، ص297.

[3]– popper Karl : the open sociéty and its enemies, op, cit, p137, p13

من دعائم النازية وبرنامجها التطبيقي يقوم على هيئة استحضار كلي لما كانت تأمله الحضارات السابقة، فتنبؤه التاريخي يعتبر ألمانيا تحت معنى الحضور Présence، دولة الحرية EtatLibre.

لكن الأحداث التاريخية التي لا معنى لها إلا في ضوء علاقتها بهدف أو غاية هي الحرية، تجعل (هيغل) يقف وقفة رجل ليبرالي Libérale، يبرر مشروعية هيمنة السيد العقلاني (الغرب) على الإنسان الغارق في الوهم والتعصب.

إذن المجتمع المفتوح لا يقوم على المثالية التاريخية الهيغيلية لأنها تمثل خطر عليه، أي لا يقوم على القدرة العقلية للإنسان فحسب بل العقل وحرية القدرة النقدية للإنسان، بحيث يقترح (بوبر) هندسة اجتماعيةGéometriqueSocial أو تكنولوجيا اجتماعية تجيب بكل بساطة عما إذا كانت بعض المؤسسات الوظيفية عملية ومطابقة لبعض الغايات، فهي هندسة جزئيةGéometriquePartielleفي مقابل هندسة طوباوية Utopique، التي ينتصر لمبادئها التاريخاني.

إلى جانب نقد (بوبر) للهيغيلية، ينقد (بوبر) الماركسية، بل يعلن عداء لها باعتبارها تمثل التاريخانية بامتياز لا علاقة لها بمعيار القابلية للتكذيب لأنها نظرية زائفة يقول: "أعتقد أن (ماركسMarx)(1818-1883) كان نبيا زائفا، لقد كان نبيا لمسار التاريخ ولم تأت نبوءاته صحيحة"[1].

لقد اعتبر (بوبر) الماركسية نظرية عنيدة تتشبث بآراء خاطئة بل هي حتى نظريات حمقاء بشكل ما، إذ أن (ماركس) يختزل التاريخ* إلى صراع حتمي بين الطبقات بحيث يمكن التنبؤ بثورة عمالية تفضي إلى انهيار الرأسمالية مثلما يتنبأ عالم الفلك بحدوث كسوف الشمس، لكن مثل هذا

---

[1]- Ibid, vol 1, p82.

*- الطبيعة المادية، في حركيتها جعلت (ماركس)، يعتبر التاريخ بخلاف (هيغل)، على أنه صراع دائم بين الطبقات الاجتماعية يقول: "يتطابق الشكل التاريخي النوعي، مع العلاقات الإنتاجية)...(وينشب صراع عندئذ بين التطورالمادي للإنتاج وشكله الاجتماعي" أنظر كارل ماركس: رأس المال، م3، دار الفكر، بيروت، ط1، 1894، ص137.

التنبؤ يحتاج إلى شروط متعددة، منها ما يمثل عاملا مساعدا لهذا التحقق ومنها ما يحول دون ذلك، لهذا يبقى التنبؤ الماركسي مجرد احتمال.

المبحث الثالث: معيار التكذيب وعلم التاريخ

لقد حاول (بوبر) أن يؤسس منهج علمي للتاريخ لا يختلف كثيرا عن منهج العلوم الطبيعية، مؤمنا بأن العلم لا يتقدم ولا يتطور إلا من خلال تصحيحه الدائم للأخطاء، فإذا كان (فيكو) المعرفة عنده تقوم على مذهبه في الحقيقة، يكون فيها الحق والفعل مترادفان، أي أن التاريخ يتألف من أعمال التي تصلح أن تكون موضوعا للمعرفة البشرية ليس فيها مجال للشك، تبلغ مرتبة اليقين مادام الإنسان شارك في صنعها بنفسه.

بحيث صاغ أوهاما للمؤرخ على شاكلة أوهام (بيكون)، لتثبيت اليقين وبلوغ العلمية ما يبرر "انعكاس منهج علم الاستقرائي على دراسة التاريخ" [1]، نجد أن (بوبر)المعرفة عند هتقوم على منهجه العقلاني النقدي، كبديل للاستقراء وفي مقابل منهج التحقق معتبرا الحقيقة "هي المقياس أو المعيار، الذي يمكن أن نخطأ فيه"[2].

فالتاريخ إذن عند (بوبر) لا يخرج عن نطاق منطق الكشف العلمي الذي يتساءل عن نمو المعرفة وليس عن اليقين في المعرفة، بحيث يرتبط هذا النمو بمعيار أسماه (بوبر) معيار القابلية للتكذيب، هذا ما يجعلنا نتساءل عن الكيفية التي يمكن أن تجعل مثل هذا المعيار صالحة لدراسة التاريخ، دراسة علمية وموضوعية؟

يعتبر علم التاريخ فرعا من فروع العلوم الإنسانية وكعلم للحوادث البشرية الماضية، تقوم أمام اعتباره علما بالمعنى الضيق لهذه الكلمة عدة صعوبات منها:

-تعذر ملاحظة الحادثة التاريخية من حيث هي حادثة ماضية ثم وقوعها، فبالرغم من أن الحادثة التاريخية تفلت من الملاحظة المباشرة، حيث تترك آثار ووثائق يستطيع بها المؤرخ أن يبنيها من جديد، إلا أن (بوبر) يرفض ذلك يقول: "والمنهج المزعوم للمؤرخ المحترف)...(يبدأ من

[1]- الدسوقي عاصم: البحث في التاريخ، المرجع السابق، ص35.

[2]- لخضر مذبوح: فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، المرجع السابق، ص 285.

الوثائق)...(فهو توجيه، لا يمكن تفنيده، إنه مستحيل منطقيا، أنت لا تستطيع، أن تبدأ بالملاحظة"[1].

– استحالة إجراء التجارب على الماضي مما يتعذر معه الوصول إلى القوانين، فيصعب على المؤرخ أن يفسر الحادثة التاريخية تفسيرا علميا يقول (بوبر): "من النادر أن تتوافر لنا معطيات جديدة تساعدنا، على إجراء التجارب محددة، مثلما أن يحدث في الفيزياء"[2].

– انعدام الموضوعية في تفسير الحوادث التاريخية لأنها حوادث ماضية لا يمكن تكرارها يقول: "إن الوقائع في التاريخ)...(التي في متناول أيدينا، غالبا ما تكون محددة جدا، ولا تسمح بتكرارها، أو إحداثها مرة أخرى، كما تم جمعها وفقا لوجهة نظر محددة من قبل)...(ومدام لا يوجد في متناول أيدينا، وقائع أخر فلا يمكننا، تفنيد هذه النظرية، أو نظرية غيرها"[3].

هذه بعض الصعوبات التي تقوم عقبة كأداء أمام اعتبار التاريخ علما كبقية العلوم الدقيقة، غير أن هذا لا يعني أن هذه الصعوبات غير قابلة للتذليل بل هي محايثة لخصائص وطبيعة المنهج العلمي عند (بوبر)، بحيث يُمكن إدراك حقيقة التقارب المنهجي بين العلم الطبيعي والتاريخ في قوله: "العلم يماثل التاريخ أكثر بكثير، مما يتصور المؤرخون)...(إذ نُثير مشكلات جديدة، ولكي نحل هذه المشكلات، نبتدع حدوس افتراضية، أي نظريات مبدئية، نخضعها للمناقشة النقدية، المتجهة صوب استبعاد الخطأ، ويُمكن تمثيل العم لية بأسرها عن طريق تخطيط مبسط، يُمكن أن أسميه تخطيطا رباعيا: م1ن دق فم2"[4].

يبدو أن (بوبر) ما يقرره في المنهج بالنسبة للعلم الطبيعة هو نفس ما يقرره في علم التاريخ، فالمشكل هو نقطة البدء في مسيرة نظرية العلم عنده والبحث يبدأ أو يتصل بها دوما، وهذا

---

[1]– بوبر كارل: أسطورة الإطار، تر يمنى طريف الخولي، الكويت، مجلة عالم المعرفة، عدد 292، 2003، ص176.

[2]– بوبر كارل: الحياة بأسرها حلول لمشاكل، المصدر السابق، ص191.

[3]– بوبر كارل: عقم المذهب التاريخي، المصدر السابق، ص180.

[4]– بوبر كارل: أسطورة الإطار، المصدر السابق، ص170، ص171.

الاعتبار موجه للعلماء كما هو موجه للمؤرخين، فالملاحظة "التي تعني توجيه الحواس والانتباه إلى ظاهرة، أو عدة ظواهر طبيعية بهدف الكشف عن خصائصها وصفاتها، كما يقوم علماء الفلك بهدف الوصول إلى قوانين حركة الكواكب"[1].

أو ملاحظة المؤرخين للوثائق أو الشواهد التاريخية التي يجب أن يبدأ بها البحث يرفضه (بوبر)، يقول: "عليك أن تعرف أولا، ماذا سوف تلاحظ أي أنك يجب أن تبدأ من مشكلة، علاوة على ذلك لا يوجد شيء قبيل ملاحظة غير مؤولة، كل الملاحظات مؤولة في ضوء نظريات والمثل يصدق تماما على الوثائق"[2].

إن الشواهد التاريخية كثيرة كالأخبار التي روتها الأجيال السالفة، أو المباني، والأدوات، والأسلحة، وقطع النقد، والسجلات المختلفة، تجعل المؤرخ يدخل في تفاصيل لا سبيل للخروج منها بنتيجة موضوعية، لذا كان تحديد المشكل مهم لتفادي المتاهات والتفاصيل، لأنه يُحدد نوعية الوثائق التي يجب أن نلاحظها ونحن بصدد معالجة الحادثة التاريخية يقول: "هل تذكرة سفري بالقطار إلى لندن وثيقة تاريخية؟ أجل وكلا، إذا كنت متهما في جريمة قتل يُمكن أن تفيد التذكرة لتأييد الدفع بغيابي عن مسرح الجريمة وبالتالي تغدوا وثيقة مهمة)...(ومع هذا لا ينبغي لي أن أنصح مؤرخا بأن يبدأ عمله بجمع تذاكر السكك الحديدية"[3].

إن النظريات العلمية قابلة للاختبار لا تحقيق ولا تبرير لكن للتكذيب كمعيار لموضوعيتها، في قول (بوبر): "إننا نجد النظريات العلمية ليست أبدا مما يقبل التبرير أو التحقق تماما وإنما هي مما يقبل الاختبار"[4]، وهذا القول ينعكس تماما على دور المؤرخ، إذ يبدأ بوضع حلول بعد وضع

---

[1]- زيدان محمود فهمي: الاستقراء والمنهج العلمي، المرجع السابق، 45.

[2]- بوبر كارل: أسطورة الإطار، المصدر نفسه، ص176.

[3]- المصدر نفسه، ص176.

[4]- بوبر كارل: منطق الكشف العلمي، المصدر السابق، ص81.

المشكل النظري، الذي وجه ملاحظته للوثيقة المتعلقة بالحادثة التاريخية، ثم يقوم باختبار هذه الحلول ويستبعد الضعيف منها، لأن الحلول القابلة للاختبار تكون أكثر قابلية للتكذيب.

هكذا يخطوا (بوبر) خطوة جريئة في إرساء دعائم منهج علم التاريخ أي منهج لا يخرج عن مبدأ العقلانية النقدية، لأنه وفق هذا المبدأ وفقط يُمكن للمؤرخ البحث في مضمونه وموضوعية وقائعه بعيدا عن التفسيرات المبطنة بالخلفيات والإيديولوجيات Idéologie، وقريبا من منهج الفرضي الاستنباطي.

إن تبرير (بوبر) بعقم المذهب التاريخي أو نقده للتاريخانية دليل كاف على ضرورة النقد بالنسبة للمؤرخ وأهمية الاشتغال بالابستيمولوجيا دون التمسك بالمعاني الدوغمائية، والتي هي تابعة من وجهات نظر كالتي تقول بالروح المطلق عند (هيغل)أو الاقتصاد عند (ماركس)...الخ .

لعل الدور الذي يجب على المؤرخ أن يلعبه كالدور الذي يلعبه عالم الطبيعة، وهو تطبيق معيار التكذيب والنظر للتاريخ على انه يمثل مسار النمو المعرفي للإنسان وتطوره بحيث يختار من هذا المسار مشكلة أثيرت بين علماء أو أدباء ... ثم يقوم بتحليل المشكل واقتراح الحلول لها يقول :" لقد زعمت أن قصة تنامي المعرفة الإنسانية)...(يمكن أن يقول عنها المرء إنها خطة نستطيع استكشافها في التاريخ)...(وبينما تكون هذه الخطة، أو هذه الخطط، نظرا إلى اختلاف أنماط المعرفة شيئا معطى كنتيجة لاختيارات أسلافنا فمن الواضح جدا أننا نملك أن نفعل بها ما نشاء نستطيع أن نتبناها)...(ونعززها، أو أن نصرف بالا عنها)...(إنني إذا زعمت بضرورة التعهد، بتلك الخطة)...(لأنها تبدو لي جديرة بالاختيار، وبأن نجعلها خطتنا، بمعية الدافع، نحو التحرر بواسطة المعرفة"[1].

[1]–بوبر كارل: أسطورة الإطار، المصدر السابق، ص 81.

يبدو أن (بوبر) لم يبخل نفسه من البحث في العلوم الإنسانية بل كان وفيا لمنهجه وهذا الوفاء، جعل (بوبر) يهتم بنقد التاريخانية ويعمل في نفس الوقت بتقديم خطوات مقترحة للمؤرخ تجعل من التاريخ علما يقبل تكذيب تتلخص فيما يلي:

-حتى يستطيع المؤرخ، تفادي المتاهات والخروج بالحلول موضوعية، لابد أن ينطلق من تحديد المشكل التاريخي .

- تحديد المشكل التاريخي يُحدد نوعية الوثائق التاريخية رغم تعددها، والمرتبط هي الأخرى بنوعية الحادثة التاريخية.

- يقدم المؤرخ حلول قادرة على الاختبارات النقدية، وهذه الحلول مناسبة لأفراد مجتمعة (اجتماعية، سياسية، معرفية).

- يجب على المؤرخ عدم الاقتناع بالنظريات التاريخانية بل استخلاص الفوائد المعرفية، من المشكلات التي واجهها السابقون، والتي تعد بمثابة الجهد المعرفي أو بمعنى آخر الجهود الإنسانية المبذولة في الماضي، لتطوير المعارف بشكل عام.

لعل أهم شيء قد تمت ملاحظاته هو أن التأسيس الابستيمولوجي عند صاحبه (كارل بوبر)، يقوم على معيار القابلية للتكذيب كعملية إجرائية تبرر فاعلية العقل الناقد للنظريات الدوغمائية وفي نفس الوقت تتويجا لعمل المؤرخ، لهذا نقد (بوبر) التاريخانية لأنها تمثيل نظريات زائفة لا تخضع لمثل هذا المعيار كما حذر المؤرخ من إتباعها، إلا أن هناك بعض الرؤى الفلسفية المعاصرة تعد سبيلا لنا في تقييم الموقف الابستمولوجي عند (بوبر) من التاريخ.

قد لا يجد الباحث مؤلفا أو نصوصا أثناء عملية البحث تشير إلى نقد (غادامير Gadamer) (1900-2002) لـ (بوبر) ولكن الهاجس الرئيسي الذي لازمنا، هو تلك المساءلة النظرية وهي مساءلة حركها قلقنا الفلسفي من طبيعة الهرمونطيقا المعاصرة HerméneutiqueContemporaine في هذا الشخص، بحيث "لا مناص فيها من موقعية الفهم

التاريخية كأساس أنطولوجي"[1] هذا ما يجعلنا نتسائل فيما إذا كان بمقدور أو الكيفية التي منحت بها الهرمونطيقا المعاصرة البعد الأنطولوجي للتاريخ، بدلا عن البحث في الأسس الابستمولوجية التي تمنح التاريخ المشروعية كعلم؟ وهل استطاع ت فعلا الهرمونطيقا المعاصرة أن تكشف عن البديهية الأساسية للتاريخ على نحو سليم؟

يبدوا أن التجربة الفلسفية عند (بوبر) قد حصرت التاريخ، بحيث جعلت مهمة المؤرخ تنطوي تحت لواء العلم، بل أسلوبه في رأينا يعد تضيقا لمهمة الفلسفة بأكملها مقارنة بالهرمونطيقا المحاصرة التي أصبح يفهم فيها دور المؤرخ كفعل من أفعال الوجود ذاته، فواحد ك (غادامير) ينطلق من الإشكال الفلسفي الذي عاش من أجله (هيدغر) هو كيف يمكن للإنسان أن يكون على وعي بمهمة الفلسفة؟

وما دامت الفلسفة ليست شيئا خارجا عن الإنسان و"الفهم هو أساس لها"[2] فإن المهمة الحقيقة للفلسفة فهم الوجود الإنساني (Dasein)* ف (غادامير) بخلاف (دلتاي) يستند على الأنطولوجيا الهيدغرية القائلة؟ بضرورة أن تقف النزعة التاريخية Historicisme والسلطة الزمنية Temporalitie في مركز مشروع فلسفي"[3].

لقد لاحظنا سابقا، أن نقد (بوبر) للتاريخانية يتفق مع مقاربته الموضوعية بين المعرفة العلمية، والتي تتألف بغير ذات عارفة والنزعة الذاتية Subjectivité التي تدعي التنبؤ بحركة التاريخ كال (كانطية)، ولاسيما (الهلغيلية)، التي منحت الكوجيتو الديكارتي –أنا أفكر– بإطلاق بحيث

---

[1]– إيان ماكلين: التأويل والقراءة، تر خالد حامد، مجلة الأفق، العدد 20، 2002، ص16.

[2]– نصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب، ط6، 2001، ص30.

[*]– كلمة ألمانية معناها الوجود الحاضر أو الوجود المقابل للاوجود، ويعرفه (هيدغر) على أنه كينونة الموجود الإنساني، او كيفية وجوده، ولما كان العالم في تبدل مستمر، كانت هذه الكينونة الإنسانية غير مستقرة على حال، ماهية الإنسان وجوده، وحقيقة نزوعية إلى ما يريد أن يكون فهو إذن يحدد ذاته بذاته، ويجاوز بفضله حدود الواقع وينفتح على العالم جميل صليبا :المعجم الفلسفي، المرجع السابق، ص556.

[3]– إيان ماكلين، المرجع السابق، ص 17.

عملت على أرخنت الذات أو منحتها بعدها التاريخي، وتنبأت بدولة الفكر أو الحرية أي عندما تعني الذات ذاتها.

إن هذا النقد يخدم الغرض الابستمولوجي وهو تحديد منهج علم التاريخ، إلا أن (بوبر) أفرغ كلمة "تاريخانية" من معناها المحدد، وأطلقها على كل رأي في التاريخ في حين نجد أن (غادامير) أعاد النظر في التاريخانية بما هي مبدأ الفهم والتي: "لا تعني بتاتا تحديد معينا لحد العقل ولزعمه بإمكانه إدراك الحقيقة"[1].

إذن لا يبقى مجال للحديث عن نقد (بوبر) للتنبؤ الهيغيلي بعد أن اخذ (غادامير) من (هيغل) أن الحقيقة توجد داخل اللغة، وبعد أن عمل سابقه (هيدغر) على الاستذكار Rétrospection، أو استرجاع فكرة المطلق الهيغلي واعتبارها ميتافيزيقا تمثل فترة ضرورة من تاريخ الوجود.

فالتاريخ الذي نعيشه كإشكالية والذي يجب أن نبحث فيه لا علاقة له بمنهجية نقدية في المعرفة بل بالفهم الذي يمثل الوعي التاريخي والذي يفسر التاريخ نفسه من خلال اللغة كأفق للوجود، أي التاريخ عند (غادامير) وفق الفلسفة هيدغرية، مرتبط بـ "هرمونطيقاالدازاين، تحلل الوجود"[2].

[1]- جان غراندان: المنعرج الهرمنوطيقي للفينومينولوجيا، تر: عمر سهيل، دار العربية للعلوم الناشرون، الجزائر، ط 1، 2007، ص126.

[2]- المصدر نفسه، ص75.

خاتمة

لعل إشكالية علمية التاريخ، أي إشكالية ما نريد تحديد ماهيته وتبيان طبيعته وتصنيفه ضمن بقية العلوم، هي من بين المواضيع المركزية أو المحورية في الفلسفة عبر تاريخها بشكل عام، وعند (كارل بوبر) بشكل خاص بالرغم من التهميش الذي تعرض له في العصور الماضية.

والدليل على ذلك، الصدام المعرفي الذي وقع حول المقياس أو المعيار الذي يقاس به مدى علمية التفكير التاريخي، أو حول القواعد والعمليات الخاصة التي يستخدمها الباحث في دراسة القضايا التاريخية والكشف عن حقائقها بصفة موضوعية، سواء الموقف الذي أراد إنصاف التاريخ كعلم متأثرا بانجازات العلم الاستقرائي الحديث، أو الموقف الذي يتبنى علمية التاريخ من خلال عملية فهم النص التاريخي اعتمادا على التجربة النفسية الواعية بعيدا عن الاستقراء أو بمنهج لا يخرج عن مبدأ العقلانية النقدية، أي الأسلوب الفرضي الاستنباطي عند (بوبر).

لهذا يمكن أن نورد أهم النتائج أو النقاط الجوهرية التالية على مدار ثلاثة فصول من بحثنا هذا تتعلق بهذه المواقف خصوصا ما يتمحور تفكيرا (كارل بوبر) حولها.

محاولة التطلع على الحقيقة التاريخية، أو الحقيقة العلمية هي المقصد والهدف من البحث بأكمله لكن الذي يسير هذا البحث هو المنهج، أو الطريق المحدد الذي يعكس البحث المنظم لهذا تعتبر عملية تحديد الأوهام التي نادى بها (بيكون) باعتبارها عيوب في تركيب العقل عملية إجرائية بالنسبة للمؤرخ، حتى لا يكون عقله مسرعا لآراء الشعوب الماضية عند (فيكو) والفهم كمرحلة من مراحل منهج النقد التاريخي كقاعدة معرفية للعلوم الإنسانية عند (دلتاي).

الاختلاف بين (فيكو) و(دلتاي) دليل قاطع ليس على الاختلاف بين التفسير والفهم بل على الحقيقة التاريخية تبقى دائما نسبية وإنما الحقيقة التي يجب أن يؤمن بها الباحث هي التغيير، لهذا فالمنهج ليس شيئا ثابتا على الدوام بالرغم أنه مهم في عملية البحث، لكن الأهم منه هو نقد هذا المنهج وتجاوزه.

الاهتمام بدراسة التاريخ مهم بالنسبة للحياة، لكن إذا ما اقترنت هذه الدراسة في الكيفية يمتلك بها المؤرخ الحس التاريخي، لأن التاريخ ليس ماضي فقط أو الاقتصار على الأصول إذ هي تحتمل الوضيع كما تحتمل الرفيع، بل هي في نظر (نيتشه) مرض يقتل الحياة.

يجب على المؤرخ أن يكون على وعي بالخطوط العريضة للمنهجية التحليل النفسي فهو ليس مجرد تقنية نستعملها داخل المخبر بل لقد ذهب إلى أبعد من ذلك، حين أصبحت ثقافة الماضي كنص في بعده الإنتاجي التاريخي، كما يدعي (دلتاي) لا تكشف عن تجربة نفسية واعية بل تكشف عن الجزء الأكبر من الحياة النفسية بأكملها هو اللاوعي.

أهم شيء يميز العلم هو الطابع الثوري وتاريخه يشهد على ذلك، إذ لم بد على الفيلسوف أن يخلق ثقافته باستمرار بالاتصال مع ثورات العلم، أي أن يكتسب سمة النقد وهذا ما أشارت إليه، العقلانية النقدية المعاصرة في شخص (باشلار).

يبدو أن النقد كما فهمه واستوعبه (كارل بوبر)، هو أكثر عمقا مقارنة إلى ما توصل إليه (باشلار) نفسه وبحسب القارئ أن يستنتج نقاط هذا الفهم العميق في:

- النقد هو جوهر التقدم وكمنهج لعمل العقل، في أي عملية من عملية الحياة، وفي ضوءه تكتشف الخطأ بل يعد شرط من شروط الموضوعية لنمو المعرفة.
- التمييز بين النقد الذي يخدم الغرض الجمالي (أغاني، ملاحم) والنقد الذي يخدم الغرض، المعرفي (العلم، الطبيعة).
- مجاوزة الطرح الفلسفي الكلاسيكي في وجهه العقلاني أو التجريبي، والتأكيد على أهمية النقد ليست فقط على حساب الخاصية الابستمولوجية للعلم (الثورية)، بل الطرح الفلسفي الكلاسيكي في حد ذاته لم يفرق بين مسألة أصل المعارف ومسألة صدقها.
- الدرس الفلسفي الابستمولوجي هو أن نكون على وعي بمهمة النقد، فهو شعار الفلسفة ويجب على كل باحث أن يتخلى به للكشف عن الجوانب العقلانية لهذا فاستمرارية الخلق الثقافي

بالاتصال مع ثورات العلم لا تقع على عاتق الفيلسوف فقط، بل على عاتق كل باحث حتى في العلوم الاجتماعية.

أهمية النقد في رأي (بوبر) تكمل في التمييز بين العلم واللاعلم أو الفصل، بين مجموعة النظريات التي تقبل الخضوع للمعيار الذي يمنحها صفة العلمية، والنظريات التي لا تقبل لمثل هذا المعيار، وهذه الأهمية بالطبع تنعكس على الإنسان نفسه كشرط من شروط تقدم بني جنسه.

طبيعة المنهج العلمي عند (بوبر) تصوير صادق لل ثورية التي يتميز بها العلم أي ما يستجيب للإنجازات التي حققها العلم المعاصر وفي نفس الوقت مجاوزة لمفاهيم العلم الحديث، فهو كبديل للإستقراء وفي مقابل منهج التحقق ما يؤثر على الدراسات الاجتماعية والإنسانية كعلم التاريخ.

نسبية الحقائق التي يصل إليها العلم، تؤكد على وجود تنوع على مستوى المناهج، وبالتالي تنوع في المفاهيم والمعايير مما يجعل مبدأ العقلانية المعاصرة في شخص (لوبر) قابلة للنقد والمجاوزة، ما يعزز هذا الرأي مآخذ وانتقادات (فيرابند) ضد (بوبر) نفسه.

يتخلى العلماء على النظريات العلمية التي بلورها لا تعتمد على الإ تساق المنطقي مع الواقع، لكن في نظر (فيرابند) يمكن أن تكون عنوان تطوير العلم، والتي تسمى بالنظريات المساعدة".

التقرير بعلمية التاريخ مرتبط بالوحدة المنهجية بين البحث في الطبيعة والبحث في المجتمع عند (بوبر)، بحيث تكمن مهمة المؤرخ الابستمولوجية والفردية من مهمة عالم الطبيعة في وضع المشكل واقتراح الحل، ثم إخضاع هذا الحل للاختبار النقدي لأن ما يخضع لهذا الاختبار، يخضع للتكذيب.

النظريات العلمية هي أكثر ما يقبل التكذيب أي النظريات ذات المحتوى المعرفي الكبير وذات درجة الاحتمال الأقل، لهذا فالتاريخانية في نظر (بوبر) نظريات زائفة لأنها على العكس من ذلك.

يمكن للمؤرخ البحث في مضمون الأحداث التاريخية وموضعية وقائعها، لكن بعيدا عن التفسيرات التاريخانية الحتمية والنهائية، أي الاستجابة للأسباب المنطقية ومفاهيم العلم المعاصر بدل الأخذ بآراء المذاهب التاريخية التي تعتمد على مفاهيم النزعة الذاتية أو المبطنة بأمثلة الاعتقادات الإلاهوتية في تفسير التاريخ.

إن مرحلة الهرمنوطيقا المعاصرة تتويج لعمل المؤرخ الأنطولوجي الكاشف عن البديهية الأساسية للتاريخ، ألا وهي فهم الوجود الإنساني فبتالي يكون التاريخ فعل من أفعال الوجود ذاته وإحراج البديهية الأساسية للتاريخ تحت لواء العلم، تضيق من حدوده بل يعد هذا الإدراج بمثابة أزمة أنطولوجية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر

أ–بالعربية:

1 – بوبر كارل: منطق الكشف العلمي، تر: ماهر عبد القادر، القاهرة، د.ط، 1986.

2 – بوبر كارل: الحياة بأسرها حلول المشاكل، تر: بهاء درويش، منشأ المعارف، الإسكندرية، دط، 1994.

3 – بوبر كارل: عقم المذهب التاريخي، دارسة في مناهج العلوم الاجتماعية، تر: عبد الحميد صبره، منشأ المعارف، الإسكندرية، ط3، 1959.

4 – بوبر كارل: بحثا عن عالم أفضل، تر: أحمد مس تحير، سلسلة الأعمال الفكرية، القاهرة، د.ط، 1999.

5 – بوبر كارل: أسطورة الإطار، تر: يمنى طريف الخولي، مجلة عالم المعرفة، عدد 292، الكويت، 2003.

6 – جان غراندان:المنعرج الهرمنوطيقي للفينومينولوجيا، تر: عمر سهيل، دار العربية للعلوم الناشرون، الجزائر، ط1، 2007.

7 – جورج كانغيلام: دراسات في تاريخ العلوم وفلسفتها، تر: محمد بن ساسي، مرا محمد محجوب، مركز الدراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 2007.

ب– بالأجنبية:

8- popperkarl :conjectures and refutation، the grout of scientific Knowledge،routledge and keganpaul، London، 1963.

9- popperkarl : la connaissance objective،ed، complexe 1978.

10- popperkarl : Misère de l’historicisme، T ،hevrepousseau، Edition،plon، paris، 1961.

11- popperkarl : the open society and it’s enemies vol1، vol2، Rout ledge، 1957.

12- popperkarl :the science،problmes، Aims،responsipilitées،Quater fronaohear eccles، world of objectif know ledge،edinschilpp.

13- popperkarl :how Iseephilosophie،granhill، USA، 1957.

14- Ricoeurpaul : Histoire et vérité، Edit seuil، 1995

15- wihemDilthey : critique de la raison historique، ouvre1،trasyline me sure édit،cerf،paris، 1992.

قائمة المراجع:

16 -الشاروني الحبيب: فلسفة فرنسيس يكون، دار التنوير، بيروت، ط1، 2005.

17 -الدسوقي عاصم: البحث في التاريخ، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.

18 -بشته عبد القادر: العقل العلمي في عصر التنوير، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط1، 1997.

19 -تأليف جماعي: تراث الإنسانية، الدار المصرية، مج3، د(ط.س).

20 -جميل عزيز، ماجدة مرسي: النظرية العلمية في الفكر المعاصر، المكتب العلمي للنشر والتوزيع، الإسكندرية، دط، 2001.

21 -زيدان محمود فهمي: الاستقراء والمنهج العلمي، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ط 1، 2002.

22 -زينب محمود الخضري: لاهوت التاريخ عند القديس أوغسطين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، ط 1، 1992.

23 -عبد الله عبد الاوي: ابستمولوجيا التاريخ، دار ابن نديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009.

24 -عقيل حسين عقيل: فلسفة مناهج البحث العلمي، مكتبة مدبولي، دط، 1999.

25 -علي محمودي: فلسفة كانط السياسة، تعر عبد الرحمن العلوي، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 2007.

26 -عادل عوض: فلسفة العلم في فيزياء أنشتين، بحث في منطق التفكير العلمي، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر، الإسكندرية، دط، 2003.

27 -عادل عوض: الابستمولوجيا بين نسبية فيرا بند وموضوعية شالمرز، دار الوفاء للطباعة والنشر، ط 1، 2003.

28 -لخضر مذبوح: فكرة التفتح في فلسفة كارل بوبر، دار العربية للعلوم الناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2009.

29 -محمد محمد قاسم: في الفكر الفلسفي، رؤية علمية، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، د(ط.س).

30 -محمد محمد قاسم:كارل بوبر، نظرية المعرفة في ضوء المنهج العلمي، دار المعرفة الجامعية، دط، 1995.

31 -محمد غلاب: المذاهب الفلسفية العظمى في العصور الحديثة، دار الحياء، القاهرة، د(ط.س).

32 -محمد علي ماهر عبد القادر: فلسفة العلوم، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، دط، 2003.

33 -محمد حمدي زقزوق: دراسات في الفلسفة الحديثة، دار الفكر العربي، د(ط.س).

34 -مصطفى ناصيف: نظرية التأويل، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ط1، 2000.

35 -مصطفى عادل: كارل بوبر مائة عام من التنوير ونظرة العقل، دار النهضة العربية، بيروت، د(ط.س).

36 -نبيهة قارة: الفلسفة والتأويل، دار الطليعة، بيروت، د(ط.س).

37 -يفوت سالم: فلسفة العلم المعا صر ومفهومها للواقع، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1986.

38 -يفوت سالم: العقلانية المعاصرة بين النقد والحقيقة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ط 1، 1982.

قائمة الموسوعات والمعاجم والقواميس

39 -أندري لالاند: الموسوعة الفلسفية، م1، م2، تر: أحمد خليل، منشورات عويدات، ط2، 2001.

40 -محمود زكي نجيب: الموسوعة الفلسفية المختصرة، نقلا عن الإنجليزية، فؤاد كامل، جلال العشري، عبد الرشيد الصادق، بيروت، د(ط.س).

41 -جميل صليبا: المعجم الفلسفي، الشركة العلمية للكتاب، بيروت، دط، 1994.

42 -محمود يعقوبي: معجم الفلسفة، أهم المصطلحات وأشهر الأعلام، دار الميزان، الجزائر، ط1، 1973.

43 -وهبة مراد، كرم يوسف، شلالة يوسف: المعجم الفلسفي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ط 2، 1971.

44 -ابن منظور: لسان العرب المحيط، م 1-م3، الدار المتوسطية للنشر والتوزيع، الجمهورية التونسية، ط 1، 2005.

45 -ديديه جوليا: قاموس الفلسفة، تر: فرانسوا أيوب وآخرون، مكتبة أنطوان، ط1، 1992.

46- Dauzat albert : la rousse et ymplogique et hitorique.

قائمة الرسائل الجامعية والمجلات

47 -مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الفلسفة، أمينة بن عودة: مكانة المعرفة التاريخية وتجربة الحقيقة في التاريخ إشراف بن مزيان بن شرقي، جامعة وهران، السانية، 2003-2004.

48 -شوقي الزين محمد: الفينومنولوجيا، فن التأويل، مجلة الفكر والنقد، العدد 16.

49 -إيان ماكلين: التأويل والقراءة، تر: خالد حامد، مجلة الأفق، العدد20، 2002.

الملخص

إن هذا الموضوع يعرفنا، على أهم ممثل للإتجهات العلمية المعاصرة (كارل بوبر) بمقاربته الإبستمولوجية للعلوم الإنسانية، والتي يعتبر علم التاريخ فرع من فروعها، بحيث يأخذ التاريخ موقعه من البحث الإبستمولوجي وفق هذا الفيلسوف قريبا من الاستنباط و اللاحتمية . لقد اختار (كارل بوبر)، معيارا آخر في فلسفته هو معيار التكذيب بالرغم من أنه لم يكن مؤرخا، إلى أنه قدم طريقة علمية للمؤرخين أثناء تفسيرهم للحوادث التاريخية بعيدا عن الخلفيات و الإديولوجيات خصوصا ذات الطابع الحتمي (الماركسية، الهيغلية)، هذه الطريقة تتعلق بتحديد مشكل تاريخي ثم اختباره بمجموعة من الانتقادات لأن كل ما يخضع للاختبار يخضع للتكذيب، تكشف هذه الانتقادات صدقه أو كذبه فيستبعد لوجود وجهة نظر أفضل منه. يريد (كارل بوبر) إذن جعل التاريخ علما قريبا من العلم الطبيعي شريطة أن يستجيب المؤرخ لروح النقد فعلمية التاريخ إذن ترتبط بالمنهج الاستنباطي اللاحتمي.

الكلمات المفتاحية:

التاريخ؛ المنهج؛ النقد التاريخي؛ التاريخانية؛ العقلانية النقدية؛ التنبؤ التاريخي؛ التأويل التاريخي؛ المعرفة التاريخية؛ معيار التكذيب؛ كارل بوبر.

نوقشت يوم 20 أبريل 2015